المكتبة العالمية
للفتيان والفتيات

القلعة ...

دار العلم للملايين
بيروت

القلعة ...
دار العلم للملايين

هذه الرواية

- مؤلف هذه الرواية آرشيبالد جوزيف كرونن كاتب انكليزي معاصر بدأ حياته طبيباً ثم انصرف الى العمل الروائي .
- يصور كرونن في روايته هذه حياة الاطباء في انكلترا بعد الحرب العالمية الاولى والاساليب غير المشروعة التي كانوا يلجأون إليها لاكتساب الثروة على حساب المرضى والبائسين .
- ويحاول « آندرو » بطل الرواية فضح هذه الأساليب والثورة عليها ودك « قلعة » الفساد التي ترمز اليها . فهل ينجح في ذلك ؟
- ابحث عن الجواب في صفحات هذه القصة العالمية الفذة .



الثمن [redacted] .

المكتبة العالميّة
للفتيان والفتيات



تأليف
اي جي. كرونن

تعريب وتلخيص
المحامي كمال أبوظهر

دار العلم للملايين
بيروت

الرسوم بريشة : سحر

الطبعة الأولى ، بيروت ، آذار ١٩٧٤

الفصل الأول

في وقتٍ متأخّرٍ من بعدِ ظهرِ أحدِ أيامِ أوكتوبر سنة ١٩٢٤ كان شابٌ سيءُ الهندامِ ينظُرُ بلَهفةٍ من نافذةِ عربةِ قطارٍ شبهِ خالٍ من الركّاب . كان « مانسون » قد قضى يومَه مسافراً إلا أنّ المحطةَ الأخيرةَ من رحلتهِ الطويلة الى « ويلز الجنوبية » أثارتهُ كثيراً عندما فكّرَ بأول منصبٍ لهُ كطبيب ، هذا المنصبِ الذي كان سيَشغَلُهُ في هذهِ المدينة الغريبة الموحِشة .

كان المطرُ في الخارجِ يهطُلُ بين الجبالِ على جانبَي الخطِّ الحديدي . واختبأتْ قممُ الجبالِ في سماءٍ رماديّة وبدَتْ جوانبُها التي تحوي مناجمَ الفحمِ سوداءَ باردةً ، ولم يكنْ بالامكانِ رؤيةُ الاشجار والاعشابِ في النورِ المتلاشي . وعند منعطف من الخطّ الحديدي ظهرَ فجأةً من مَصنعٍ للحديدِ نورٌ أحمرُ ألقى ضوءاً على عددٍ من الرجالِ الذين كانوا يعملونَ بكلِ ما أوتوا من قوة . وفي الحال غمرتِ الوادي نفحةٌ من القوة ، وأخذ مانسون نفَساً عميقاً . لقد شعرَ بدافعٍ جديد لبذْلِ الجهْد ، وبأملٍ زاهٍ في المستقبل .

وكان الظلامُ قد هبطَ ، بعد نصف ساعة ، عندما وصلَ

القطارُ الى « دراينفي » ، فقفزَ مانسون من الحافلة وأسرعَ خارجاً من المحطـــة .

وفي الشارع ، نظر إليه رجلٌ عجوز رثّ الثيابِ نظرةً انتقاديةً وسأله : « هل أنتَ رَجُلُ الدكتور بايج الجديد ؟ »

— « هذا صحيح . اسمي مانسون ، أندرو مانسون . »

— « وأنا اسمي توماس . العربةُ معي هنا ؛ إصْعَدْ ! »

وامتطى مانسون العربةَ التي كانتْ في حاجة ماسة للإصلاح وسارا بصمت عبرَ العديد من الأزقّة القذرة . وراحَ توماس العجوز الذي كانت تفوحُ من جسمه رائحةٌ كريهة يواصلُ النظرَ الى مانسون بطريقةٍ غامضة . وأخيراً قالَ : « لقد تخرجتَ حديثاً أليسَ كذلك ؟ »

فابتسم اندرو .

وبَصَقَ توماس العجوز وقال : « هكذا حَسِبْتُ . آخرُ رجلٍ سافر منذ عشرةِ أيامٍ . إنهم لا يمكثون طويلاً . »

— « لمــاذا ؟ »

— « السَّبَبُ الأوّلُ أنَّ العملَ شاقٌّ جداً . »

— « وما هي الأسبابُ الأخرى ؟ »

— « ستكتشفُ قريباً . »

وبعد اجتيازِ وَسَطِ البلدة ، سارا عَبْرَ أرضٍ وَعْرةٍ قُربَ مَنْجمٍ للفحم ، ثم صَعَدا في طريقٍ ضيّقٍ صخريٍّ الى منزلٍ قريبٍ من اكواخِ العاملينَ في المناجم .

وقال توماس : « هذا هو البيت . »

فخرجَ أندرو من العَربة . وبعد بُرْهة فُتِـحَ الباب الأمامي ورحبتْ به امرأةٌ طويلةُ القامة تناهزُ الخمسين .

— « حسناً ، حسناً ، لا بدَّ أنكَ الدكتور مانسون . تفضَّلْ الى الداخل . انا شقيقةُ الدكتور بايج . الآنسة بايج . أنا مسرورةٌ لمشاهدتك ! »

ثم أضافت بابتسامة ودية : « كانَ رَجُلُنا الأخيرُ عديمَ الفائدة ، ولكنني متأكدةٌ من أنه بامكاني أن أثقَ بك . تعالَ معي وسأُرشِدُكَ الى غرفةِ نومِك . »

كانت غرفةُ أندرو صغيرةً وباردةً ، وكانت المفروشات فيها قليلةً جداً . وأجال أندرو نظرَهُ في الغرفةِ الخاليةِ وقال بتهذيب : « انها تبدو مُريحةً يا آنسة بايج . »

فابتسمتْ قائلةً : « نعم ، أظنُّ أنكَ ستكونُ مرتاحاً . والآن تعالَ لتقابلَ الدكتور . » ثم توقفتْ وقالت بلباقة : « لم أعدْ أذكرُ اذا كنتُ قد اخبرتُكَ في رسالتي أنَّ الدكتور ليس على ما يُرامُ في الوقتِ الحاضر » .

فنظرَ إليها أندرو بدَهْشة .

فاستدركتْ بسرعة : « أوه ، ليس الأمرُ خطيراً . سيكونُ قريباً على ما يُرام . »

ثم قادَتْ أندرو الى نهايةِ الممرّ حيث فتحتْ باباً ونادتْ شقيقَها قائلةً : « هذا هو الدكتور مانسون يا ادوارد . »

عندما دخل اندرو الى الغرفة الدافئة التي فاحت منها رائحة المرض ، تلفت ادوارد بايج ببطء ، في سريره ، وبجهد كبير . لقد كان رجلاً مسناً في الستين ، متعب العينين ، تعلو وجهه تعابير ألم شديد . وبينما كان ضوء القنديل يشع على سريره ظهر نصف وجهه جامداً لا حياة فيه ، فالجانب الأيسر من جسده كان مشلولاً . وأصيب آندرو بصدمة . ثم ساد صمت مربك . واخيراً قال الدكتور بايج بصعوبة : « آمل ان لا تجد العمل هنا شاقاً . فأنت لا تزال طري العود . »

— « أنا في الرابعة والعشرين » ، قالها انـدرو ثم أضاف بسرعة : « ولكني أحب العمل . »

ثم نظر بايج الى اندرو وقال بصوت متعب : « آمل ان تبقـى . »

عندئذ صرخت الآنسة بايج : « يا إلهي ! ما الذي تقوله ! » ثم ابتسمت لأندرو وقادته الى العشاء في الطابق الارضي ، حيث شعر بالقلق وهو يلحق بها ، اذ لم يرد أي تلميح الى مرض بايج عندما تقدم لهذا المنصب ، بالرغم من أن الدكتور كان مريضاً الى درجة لن تمكنه من العمل بعد اليوم . وتعجب اندرو من إبقاء شقيقته لهذه الحقيقة سراً .

وعندما دخلا غرفة الطعام قالت الآنسة بايج : « أنت محظوظ يا دكتور ، إذ أنك لن تقوم بأية معاينة الليلة ، فـ « جنكينز » سيعنى بهذا الأمر ! »

— « جنكينز ؟ »

— « انه يحضر الادوية . وهو رجل نافع يقوم بأي عمل . لقد كان ينوب مناب الدكتور ، ولقد اشرف على المرضى خلال الايام العشرة الماضية . »

فنظر إليها اندرو بتعجب مرة ثانية وقال : « أهكذا يزاول اطباء الريف اعمالهم ؟ »

ثم قرعت الآنسة بايج جرساً ، فأحضرت خادمة شاحبة الوجه العشاء . وعند دخولها نظرت بسرعة الى اندرو .

— « هيا يا آني . انه الدكتور مانسون » .

لم تجب آني ، وقدمت الى اندرو قطعة من اللحم البارد أكلها من غير أن يتذوقها . واثناء الطعام كانت الآنسة بايج صامتة ، ثم جلست في كرسيها وأخذت تصف الجهاز الطبي في « دراينفي » بطريقة ودية .

وأوضحت قائلة : « إننا نحصل على نقودنا كلها من العاملين في المناجم . فشركة المناجم عندها ثلاثة أطباء على لائحتها ، وكل واحد منهم يستخدم طبيباً أصغر منه يساعده . إن الدكتور بايج يوظفك أنت الآن ، والدكتور نيقولز يوظف رجلاً سيئاً يدعى « دني » . وكل عامل في التعدين يختار من الاطباء الثلاثة الطبيب الذي يرغب في زيارته في أوقات المرض والشركة تدفع جزءاً من أجره كل أسبوع للطبيب الذي اختاره فيعطي الطبيب حصة عادلة من هذه النقود لمساعده ثم يحتفظ

بالباقي لنفسه . »

وتوقفت ثم نظرت الى أندرو الذي بادرها قائلاً : « أظن أنني أفهم الطريقة » .

فأطلقت ضحكة قصيرة وقالت : « حسناً ، كل ما يتوجب عليك أن تتذكره هو أنك تعمل للدكتور بايج ، فلا تنس ذلك ! »

ثم نظرت الى الساعة ، ونهضت بسرعة من كرسيها . وتغير سلوكها فجأة فقالت لأندرو : « هناك امرأة مريضة في الرقم سبعة في محلة « غليدار » . لقد استدعى زوجها الطبيب منذ وقت طويل . ويجدر بك أن تذهب إليها فوراً . »

الفصل الثاني

خرج أندرو تواً وكان شديد التوق الى مباشرة عمله . لقد كانت أول حالة يعالجها . واستمر هطول المطر عندما اجتاز الارض السوداء الخشنة وأخذ طريقه الى الشارع الرئيسي . وفيما هو يسير في الظلام تمثلت أمام ناظريه البلدة القذرة . وشاهد حوانيت وكنائس بشعة واسعة وباردة ملأت الشارع . غير أن شعوره وكأنه دفين في واد جعله يرتجف. كان هناك عدد قليل من الناس ، اما خلف الحوانيت والكنائس على طرفي الشارع فقد نهضت صفوف من منازل العمال .

وفي طرف البلدة البعيد كانت مناجم « دراينفي » تضيء السماء المثقلة بالغيوم . وأخيراً وصل أندرو الى الرقم سبعة في محلة غليدار ، حيث أخذ نفساً عميقاً وقرع الباب .

أُدخل أندرو فوراً الى المطبخ حيث رقدت المريضة في السرير . كانت امرأة شابة ، زوجة لأحد العاملين في المناجم يدعى وليامز . وعندما اقترب اندرو من سريرها شعر فجأة باحساس كبير بالمسؤولية . لقد كان بمفرده وكان عليه أن يكتشف مرض المرأة ويشفيها دون استشارة طبيب آخر .

وبينما كان الزوج ينتظر ويراقب في الغرفة الباردة المظلمة ، كان اندرو يفحص المرأة بعناية فائقة . كان في ميسوره ان يرى ان المرأة مريضة ، بل مريضة جداً ولكن ما هو سبب مرضها ؟ هذا ما لم يستطع أندرو اكتشافه . وشعر بقلق شديد ، فهي مريضته الاولى ، ويجب الا يقترف اي خطأ . فأعاد فحصها مرة ثانية دون أن يتمكن من معرفة ما بها ، وأخيراً التفت الى زوجها وسأله : « هل كانت مصابة بالبرد ؟»

— « نعم يا دكتور ، منذ ثلاثة أيام أو أربعة . »

فقال أندرو وهو يحاول الظهور بمظهر الواثق : « إذن سأجعلها تتحسن قريباً . تعال الى العيادة ، بعد نصف ساعة ، وسأعطيك زجاجة دواء لها . »

ثم غادر البيت بسرعة وقفل عائداً تحت المطر الى العيادة وهي عبارة عن حجرة خشبية عتيقة في حديقة بايج . وأشعل

القنديلَ ، وأخذَ يتمشّى ذهاباً وإياباً ، محاولاً الاهتداء الى المرضِ الذي تعاني منه المرأة . كان يعلمُ أنّ البردَ ليس سببَ مرَضِها ، وأنّ قضيتَها أسوأ من ذلك بكثير . ثمّ تناولَ بضعَ زجاجاتٍ عن الرفّ وركّبَ دواءً .

وما إن انتهى من ذلك وراحَ يضعُ اسمَ المرأةِ وعنوانَها على الزجاجة حتى رنّ جرسُ العيادة . وقبل أن يُجيبَ فُتِحَ البابُ ودخلَ رجلٌ قصيرُ القامة ، قويُّ البِنْيَة ، يناهزُ الثلاثين يتبعهُ كلبٌ . ونظرَ الرجلُ ، الذي كانَ يرتدي بذلة قديمة وحذاءً متّسخاً ، الى أندرو من أعلى الى أسفل . وأخيراً تكلّم فقال : « شاهدتُ ضوءاً ينبعثُ من شباككَ عندما كنتُ ماراً بالجوار ، فقرّرتُ ان ادخُلَ وأرحّبَ بك . أنا « دني » الموظفُ لدى الطبيبِ الكبير نيقولز . »

ثم أشعلَ « دني » غليونَهُ ، ورمى عودَ الثقّابَ على الارض ، ومشى الى الامامِ حيثُ التقطَ زجاجةَ الدواء وشمّها ، ثم اعادها ، قائلاً : « رائع ، إذن فقد بدأتَ تمارس العمل . الدواء كلّ ثلاثِ ساعات ! الهراءُ المعتاد : عند الشكّ أعطِ دواءً ! »

وسادَ الصمتُ الغرفةَ الخشبيةَ . وفجأةً ضحكَ « دني » وسأل اندرو لماذا جاء الى هنا .

وخلال ذلك كان الحنق يستبدُّ بأندرو فأجاب بغضب : « أريدُ ان احوِّل دراينفي الى مركزٍ طبّيٍّ شهير . »

فضحك « دني » وقال : « انتَ ذكيّ ، يا عزيزي الدكتور ! »

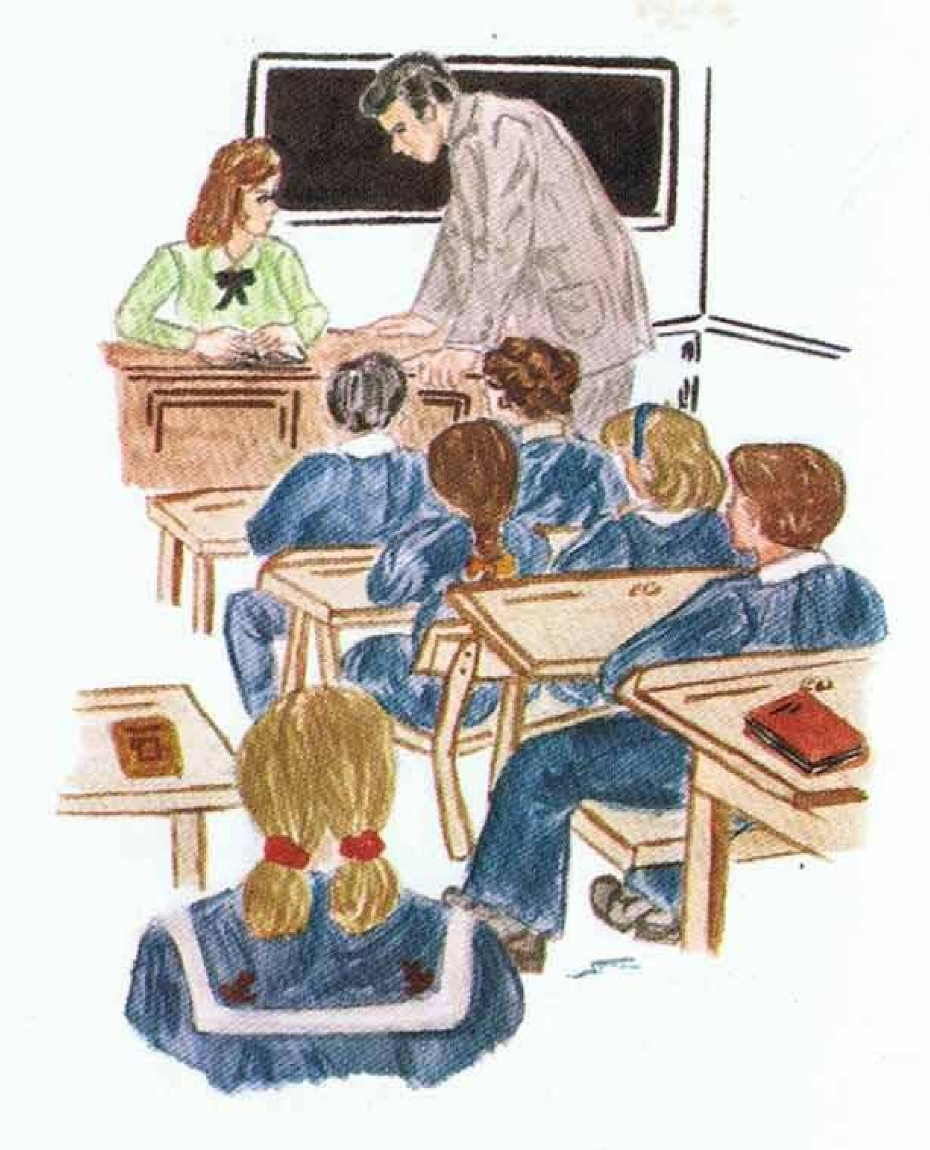
وفجأةً تغيّرَ مزاجُهُ وقال : « اسمع يا مانسون ، هنالك شيءٌ يجب أن تعرفه عن هذا المكان ، فالجهازُ الطبيّ في دراينفي سيءٌ الى ابعد الحدود فليس هنالك مستشفىً أو أيُّ شيءٍ آخرَ مما يحتاجه الطبيب . كما أنّ المكانَ غيرُ صحيٍّ الى درجة أن الناس كثيراً ما يموتون من الحُمّى التي يسبّبُها شُربُ الماءِ الفاسد . كانَ بايج طبيباً صالحاً ، ولكنه مريضٌ ولنْ يتمكّنَ من العملِ ثانيةً . أما نيقولز ، ربُّ عملي ، فهو لا يفكّر إلا في كَسْبِ المال ، أما براموييل فلا يعرفُ شيئاً ، وأنا أُسرِفُ في شُرْبِ الخمر . هذا كلُّ شيء . تعال يا هوكنز ، سنذهبُ الآنَ . »

لقد نادى الكلبَ ثم تحرّكَ بثقلٍ نحو البابِ حيثُ توقّفَ ، والقى نظرةً ثانيةً على زجاجةِ الدواءِ وأضافَ : « إنني أنصحُكَ بأن تُدْخِلَ في حسابك حُمّى التيفوئيد ... »

ثم أُغلِقَ البابُ بعنفٍ ، واختفى « دني » والكلبُ في الظلام الرّطْب .

لم ينَمْ أندرو جيداً تلك الليلة. فقد أثارت ملاحظةُ « دني » شكاً آخرَ في ذهنه ، هل كان المرضُ هوَ حُمّى التيفوئيد ؟ وعندما استلقى في السريرِ أخذَ يتساءلُ هل صحيحٌ أنه يعْرِفُ شيئاً عن مهنةِ الطبّ ؟

وفي الصباحِ التالي ، تناولَ اندرو إفطارَهُ بسُرْعة وذهبَ الى العيادة . كان جنكينز هناك يركّب الادوية . فبادرَهُ هذا



أندرو في أول لقاء له مع كريستين ١

قائلاً : « لا تجشَّمْ نفسَكَ عنــاءَ المجيء باكراً يا دكتور . فبامكاني أن أعطيَ الناسَ أدويتَهم والتقاريرَ ، وليس مــن الضروريّ أن تُعاينَهم . »

فأجاب أندرو ببرود : « شكراً لك ، لكنني أرغبُ في معاينتهم . » وتوقف قليلاً ثم سألَ بسرعة : « ماذا تَضَعُ في هذه الزجاجات ؟ »

فابتسمَ جنكنز وقال : « ماء يا دكتور ، إنني أُلَوِّنُ الماء لاجعله يبدو كالدواء . فالمرضى لايعلمون هذا ؛ إنهم يَظنّون انه يَشْفيهم . »

وبعد معاينات الصباح ، ذهبَ اندرو ، وتوماس العجوز ، الى محلة غليدار وعَرَّجَ على الرقمِ سبعة ثم عادَ ستةَ منازلَ اخرى حيثُ كانَ الناسُ يَشْكُوْنَ من آلامٍ في الرأس وامراضٍ أخرى . وهنا وجدَ اندرو دلائلَ تشيرُ الى وجود الحمّى فأدرك أنها قد بدأتْ بالانتشار ، وقررَ أن يحدّثَ الدكتور بايج في هذا الأمر فوراً .

وحين سأل الدكتور بايج : « ما أفضلُ شيءٍ يُمكنُ عملُهُ في حالةِ حمى التيفوئيد ؟ » اجابَهُ بقوله : « لقد كانت الحمّى دائماً صعبةَ المعالجة . إنني أنصحُكَ بأن تتّصِلَ هاتفياً بغريفز ضابطِ المنطقةِ الطبيّ . لكنني أخشى ألاّ يكونَ ذلك مُفيداً . »

وهبط اندرو الى الصالة واتّصَلَ بغريفز تلفونياً .

فأجابَهُ صوتُ رجلٍ بتردُّد : « من الذي يريدُهُ ؟ »

– « أنا مانسون من درابنفي، انني أعملُ للدكتور بايج . عندي العديدُ من حالات حُمّى التيفوئيد وأريدُ أن يَحْضُر الدكتور غريفز الى هنا حالاً . »

– « آسف ، فالدكتور غريفز خرج بمهمّة . »

فصاح مانسون : « ومتى سيَرْجِــع ؟ »

– « لا أدري . »

– « ولكنْ اسمعْ ... »

ولكنّ المتحدثَ في الجانب الآخر كان قد أقفلَ . فأخذَ مانسون يشتمُ بصوت عال . وبينما كان يستديرُ شاهدَ « آني »، الخادمةَ ، بقربه ، فقالتْ له : « الدكتور غريفز لا يوجدُ ابداً في منزله في مثلِ هذه الساعة . انه يخرجُ ليمتّــع نفسه » .

– « ولكنني أظنُّ ان الذي تكلمتُ معهُ كانَ الدكتور غريفز ... »

فابتسمت آني وقالت : « ممكن ، اذ انه عندما يكونُ في البيتِ يتظاهرُ أنه في الخارج ! »

ذلكَ المساء وأثناء عنايتهِ بمرضى العيادةِ قرّر اندرو أن يقابلَ « دني » . فهو الذي طرح احتمالَ التيفوئيد . وفي ما بينه وبين نفسه قال : « إنني اكرههُ ، لكنّ هذا لا يهمّ ، يجبُ أنْ اذهبَ إليه فوراً . »

وعندما زارَهُ آندرو لم يُظْهِرْ « دني » أيَّ دهشة ، ولكنّه سأله بأسلوبهِ الفظّ : « حسناً ، هل قتلتَ احداً حتّى الآن ؟ »

فاحمرَّ وجهُ اندرو وقال : « لقد كنتَ على حق . كانت حمى التفوئيد ، ولقد جئتُ لاطلبَ نصيحتَكَ . »

فأطلقَ « دني » ابتسامةً باهتةً وقال : « اذن يُستحسن أن تدْخل . إجلس ، هل ترغب في بعض الشراب ؟ » وجلس للحظات صامتاً يركل الكلبَ برجله ، وفجأةً أشارَ الى الطاولة وقال : « انظر ! » . كان على الطاولة مجهرٌ ، فنظر اندرو عَبْرَهُ وشاهد على إحْدى الشرائح الزجاجيةِ نماذجَ من الجراثيمِ التي سَبَّبتِ الحمى .

وتساءل آندرو : « إذن لديكَ حالاتُ تيفوئيد جديدة ؟ »

فأجاب دني : « أربع ، وكلُّها في نفسِ المنطقة . هذه الجراثيمُ كانتْ في بئرِ الماءِ في محلّةِ غليدار » .

فنظر إليه اندرو بدهشة .

— « والمجرورُ هو سببُ المتاعبِ ، ففيه ثقوبٌ يتدفق القَذَرُ عَبْرَها الى البئر . وقد اخبرتُ غريفز بذلك عدةَ مرات لكنَّهُ رفضَ أن يَفْعَلَ شيئاً . »

— « شيءٌ مُخْجل » ، قال اندرو ذلك ثم نَهَضَ واتّجه نحوَ الباب ثم استطرد قائلاً : « شكراً لكَ على هذه المعلومات . ففي المستقبل سوف آمُرُ مرضايَ في محلةِ غليدار بأنْ يَغْلُوا الماء . »

وأثناء عودتهِ ، ماراً بمحلة غليدار حيث تَرَكَ أوامرَهُ بخصوص الماء ، تحقّقَ اندرو انه لم يَكْرَهْ « دني » بالدرجة

التي كان يَظُنُّها غير ان سلوك « دني » حيَّرهُ . وعند وصوله الى البيت ، قرَّرَ أن يبحث عن مؤهلات « دني » فراجع أحد كتبِ بايج القديمة فوجد أن « دني » المتحدّر من أسرة محترمة ، تلقّى ثقافتَهُ في جامعة انكليزية ، وقد تخرّج بدرجةٍ جيدة من أحد أكبر مستشفيات لندن .

كان « دني » في الحقيقة طبيباً ممتازاً ، يُعْنى بمرضاه عنايةً فائقةً ويعاملُهم بلطف بالغ . وكان يرفُضُ إعطاء الادوية ما لم تكن ضروريةً . في حين كان كثيرٌ من الاطباء لا يتكبّدونَ اي عناءٍ لمعرفة علّةِ مَرْضاهُمْ ويكتفونَ باعطائهِمْ أدويةً لا فائدةَ منها .

الفصل الثالث

عَمِلَ أندرو بجهد لمعالجة حالات الحُمى . وإذْ كان مرضاهُ لا يشربون الآنَ غير الماء المغليّ فقد بدأتْ صحتهم تتحسنُ بسرعة .

وفي أحدِ أيامِ نوفمبر قبلَ الغَداء بقليلٍ هتَفَ له «دني» :

— « أريدُ ان أراكَ يا مانسون . فهلْ باستطاعتكَ المجيء الى منزلي في الثالثةِ لأمرٍ هام ؟ »

— « حسناً ، سأكونُ هناك . »

تناولَ أندرو غداءه وهو منشغلُ الفكر . وبينما كان يأكل

نظرتْ إليه الآنسة بايج بشكٍ وسألت : « من الذي هتفَ لك ؟ إنه « دني » أليس كذلك ؟ لقد قلتُ لك ألا تُخالط هذا الرجل ؛ إنه غيرُ نافع . »

فأجابَ أندرو بغضب : « أنتِ مخطئةٌ يا آنسة بايج ! لقد وجدتُهُ ذا نفعٍ كبير . »

— « لكنَّهُ طبيبٌ سيءٌ ، فهو يرفضُ إعطاء الادوية ، فضلاً على انه فَظّ . انني أمنَعُكَ من الاجتماع به . »

وبعد الغداء سارَ أندرو ببطءٍ في الشارعِ باتجاهِ منزلِ «دني» الذي حياهُ وبادَرَهُ قائلاً : « لقدْ تُوفيَ جونز الصغير هذا الصباح ، وعندي حالتا تيفوئيد جديدتان . »

فنظرَ اندرو الى الارضِ بأسىً وهو لا يدري ماذا يقول .

فقال دني : « على كل حال ، اذا كان ذلك المجرور ... »

— « طبعاً ، طبعاً ، يجب أن نفعلَ شيئاً بخصوصِ المجرور ، يجب أن نكتبَ الى ... »

فصرخ دني : « لا فائدةَ من كتابةِ الرسائل ، فهنالك طريقة واحدة تجعلُهُمْ يبنونَ مجروراً جديداً . »

« وما هي ؟ »

— « نَسْفُ المجرور القديم . »

فظنَّ اندرو أن « دني » قد جُنَّ ، وقال له : « ولكنَّكَ لستَ جاداً ! » فنظر إليه « دني » بازدراء وقال : « لستَ مضطراً لمساعدتي اذا لم تكُنْ راغباً . »

ولكن آندرو وعده قائلاً : « اوه ، سأساعدك . »

وطوالَ بعد الظهر ، وأثناء زيارةِ مرضَاهُ ، ندِمَ مانسون على وعده . فخطةُ « دني » تنطوي على الكثيرِ من المجازفة . وفي حال اكتشافِ أمريهما سيُطردان معاً من منصبَيْهما .

وارتجف أندرو للفكرةِ ولعَنَ « دني » ، وأقسمَ عدةَ مرات أنَّهُ لن يذهبَ ، غير أنه لسببٍ ما لم يستطعْ أن يحنُثَ بوعدِهِ .

وعندَ الحاديةَ عَشْرةَ من تلكَ الليلة خرج اندرو مع « دني » والكلب هوكنز . كانَ الظلامُ حالكاً والجوُّ رطباً ، وهبَّت ريحٌ قويةٌ قذفتِ المطرَ في وجهَيْهما . وكان كلا الرجلين يحمل متفجراتٍ في جيوبِ معطفِهِ . وسارا بسرعةٍ عَبْرَ الشارع المُقْفِرِ . وعند وصولهما الى المجرورِ في محلة غليدار نزعا الغطاءَ الذي لم يُرفعْ منذ سنواتٍ وأشعَلا ضوءاً في داخلِهِ .

فقال دني : « لطيف أليس كذلك ؟ أنظُرْ الى الثقوبِ في الجدران . أنظُرْ يا مانسون للمرة الاخيرة . »

ولم يُقَلْ أيُّ شيءٍ آخر . ثم وضعا المتفجراتِ داخلَ المجرور وأعادا الغطاء وانطلقا هاربَيْنِ .

وعندما قطعا نحواً من ثلاثينَ ياردةً سُمِعَ دويُّ انفجار .

وقال آندرو بانفعال : « لقد نجحنا يا دني ! »

وتبعَ ذلك خمسةُ انفجارات ، وكانَ الاخيرُ مدوّياً الى درجة جعلتْ سماعَهُ ممكناً حتى في اعماقِ الوادي .

فقال دني : « هذه نهايةُ مصدرٍ واحدٍ من مصادرِ البؤس » .

وفي الحال فُتحتِ الابوابُ والنوافذُ وهُرِعَ الناسُ الى خارج بيوتِهِم. وفي لحظة، اكتظَّ الشارعُ، فاستغلَّ دني ومانسون الضجيج وأسرعا الى البيت.

وقبلَ الثامنة من اليومِ التالي ظهرَ الدكتور غريفز على مسرحِ الاحداث، فقد أرسَلَ في طلبهِ عددٌ من اهم رجالاتِ البلدة الذين أخبروا هذا الضابط الطبي بصوتٍ عالٍ سمعَهُ الجميع أنه اهمَلَ واجبَهُ بشكلٍ مخجِلٍ.

بعد ذلك اتجه غريفز الى دني ومانسون اللذين وقفا بين الجموع وقال: «أيها الرجل، عليَّ أن أبني هذا المجرور الجديد لك الآن.»

فلم يَظْهَرْ على وجه دني أثرُ انفعالٍ ما.

ثم قال ببرود: «لقدْ أنذرتُكَ لشهورٍ خلتْ، ألا تذكُر؟»

— «أجل، أجل، ولكن كيفَ لي أنْ أتكهنَ بأن المجرور سينفجر؟»

وبدأ العمل ببناء مجرورٍ جديد في يوم الاثنين التالي.

الفصل الرابع

بعدَ انقضاءِ ثلاثة أشهرٍ بدأ أندرو يُحبُ البلدةَ القديمةَ المدرةَ، وأهلَها الغريبينَ الطيّبين.

وبعد ظهرِ أحَدِ الأيامِ خرجَ أندرو مُغتبطاً لعيادة ولدٍ في

التاسعة يدعى «جو». ولمْ يكنْ «جو» شديدَ المرض ولكنَّ شدةَ فقرِ أسرتِهِ جعلت مَرَضَهُ يُسَبِّبُ عملاً إضافياً لوالدتِه.

وعند نهاية الزيارةِ قال أندرو للأم: «يبدو لي أنهُ يجبُ أنْ لا ترسلِي أخاه الى المدرسة.»

فنظرتْ إليه والدة «جو» بدهشة وقالت: «ولكنَّ الآنسة بارلو قالت إنه ليس من الضَّروريِّ إبقاؤه في البيت.»

وبالرغم من شفقتِهِ شعرَ أندرو بانزعاجٍ وقال: «ومن هي الآنسة بارلو؟»

— «إنَّها معلمةُ المدرسة. لقد عرَّجَتْ عليَّ هذا الصباح».

فلم يُجِبْ أندرو، ولكنْ عندَ خروجِهِ من المنزل توجَّهَ مباشرةً الى المدرسة لمقابلةِ تلكَ المعلمةِ المتطفِّلَة.

وعندما دخلَ المدرسةَ كانَ جميعُ الاولاد يجلسونَ الى طاولاتِهِمْ. وكانتْ الآنسة بارلو تنظرُ بالاتجاهِ المعاكِس فلمْ تَشْعُرْ بوجودِهِ. ثم استدارت فَجْأةً.

كانتْ مختلفةً عنْ مُعْظَمِ معلمات المدارسِ اللواتي عرَفَهن أندرو مما جعَلَهُ يتردَّدُ ثم يقول بارتباك: «هل أنتِ الآنسة بارلو؟»

لقدْ كانتْ شابةً جذّابةً حسنةَ الهندام تناهزُ الثانيةَ والعشرينَ. ونظرتْ إليه وابتسمتْ قائلةً: «نعم، أنتَ تعملُ للدكتور بايج أليس كذلك؟»

فأجابها ببرود: «دَعْكِ من ذلك. أنا الدكتور مانسون.

لديكِ هنا ولدٌ مَرَضُ أخيه مُعْدٍ ويجبُ أن يَبقى في البيت . »

فابتسمت وقالتْ : « أجل ، إنني أعرفُ ذلك . »

وهنا فقد أندرو اعصابَهُ وقال لها : « ألا تُدْركينَ أنكِ تخرقين الأنظمة بسماحِكِ لهذا الولدِ بالمجيء الى المدرسة ؟ »

فأجابته بهدوء : « معظمُ الاولادِ هنا أُصيبوا بهذا المرض والآخرونَ سَيُصابونَ به حتْماً ، وعلى كلِّ حالٍ ما هو الضررُ من مجيئهِ الى المدرسة ؟ »

— « ينبغي أنْ يكونَ في المنزلِ ، وعليكِ أنْ تُرْسليهِ إليه في الحـــالِ . »

فالتمعَتْ عيناها وقالتْ: « إنني المسؤولةُ عنْ هذا الصف . يمكنُكَ أن تأمُرَ الناسَ في أمكنةٍ اخرى ، أما هنا فأنا التي تُصْدِرُ الاوامر . »

فصرخ أندرو : « لكنّكِ تخرُقينَ القوانينَ ، وسأضطر للابلاغ عنك . »

— « إذنْ بلِّـغ عني » ثم استدارَتْ نحو الاولادِ وقالتْ : « أيها الاولادُ قفوا وقولوا : « نَعِمْتَ صباحاً يا دكتور مانسون! شكراً لزيارتكَ ! »

فنهضَ الاولادُ وكرروا الكلماتِ بأدبٍ . ثم رافقتهُ الى الباب واغلقتهُ بلطف .

الفصل الخامس

كتبَ مانسون عدّةَ رسائل لكنّهُ مزّقها كلَّها ، فقد استاءَ من نفسهِ لانّهُ فَقَدَ أعصابَهُ وقرَّرَ الا يُبَلِّـــغَ عن معلمة المدرسة . وحاولَ نسيانَ القضية لكنه لم يستطِـــعْ طـــرْدَ كريستين بارلو من تفكيرِه .

وبعدَ مُضيِّ أسبوعين ، وبينما كانَ يسيرُ في الشارعِ ، نادَتْهُ السيدة برامْويل قائلة : « أوه ، دكتور مانسون ، أريدُ ان أراك فهل تأتي الليلةَ للعشاء ؟ »

فحاولَ اندرو اختلاقَ عُذْرٍ وقال : « أظنُ أنَّ لديَّ الكثيرَ من العمل هذه الليلة . »

— « بل يجب أن تحضُرَ ، لقدْ دعوتُ ثلاثةَ أشخاص لطفاء ، السيد والسيدة واتكنز من المنجم ، ومعلمةَ المدرسة الصغيرة كريستين بارلو . »

عندئذ أشرَقَ وَجْهُ مانسون وقال: « بالطبعِ سأحضر يا سيدة برامويل وشكراً لدعوتك . »

لم يفكرْ مانسون بشيءٍ طيلةَ النهـــار سوى أنهُ سيلتقي كريستين بارلو مرةً ثانية . وبعد عيادة المساء أسرعَ الى منزلِ برامويل شاعراً بارتباكٍ كبيرٍ حتّى أنهُ لم يجرؤ على النظرِ الى كريستين خلالَ العشاء . ولم يوجِّهْ لها أيّةَ ملاحظةٍ بعدَ الطعام . لقد أرادَ محادثتَها ولكنّه لم يجرؤ على ذلكَ .

وعندَ انتهاء الحفلةِ سألها وهي خارجةٌ من المنزل : « هــل تسمحين لي بايصالك الى البيت ؟ » فقالت « شكراً ولكنّ السيدَ والسيدة واتكنز تكرّما عليّ بذلك . »

وشعر أندرو بخيبة كبيرة وقال فجأة : « أريدُ أنْ اقولَ لك إنني آسفٌ ، لقد تصرّفتُ تصرّفاً سيئاً ، فالذي فعلتِهِ للطفل كانَ عظيماً وأنا أقدرُكِ لذلك . تصبحين على خير . »

ولم ينتظرْ اندرو جوابَها بل استدار وسار في طريقه ، ولأول مرةٍ منذ ايامٍ عديدة شعرَ اندرو بأنه سعيد .

لم يقعْ أندرو في الحبِّ قبلَ ذلكَ قطّ . وكان يخشى أن يحبّ مخافةَ أن يتعارضَ الحبُّ مع عمله ، ولكنه الآن لم يستطعْ التغلُّبَ على مشاعرِهِ تجاهَ كريستين ، فلقد تمنّى من كل قلبهِ أن يراها ثانيةً .

وفي أحدِ أيام أيار (مايو) تسلّمَ منها دعوةً الى العشاء .

وفي المساء التالي انطلقَ الى بيتِ كريستين ووصل مبكراً قبل مجيء السيد والسيدة واتكنز اللذين كانا مَدْعُوَّيْن أيضــاً .

ورحّبَتْ به كريستين ترحيباً حاراً .

كانَ رائعاً أن يكونَ هنالك معها ، ولقد شعرَ بارتياح هذه المرة وأخذَ يسألُها عن نفسِها . ففهمَ منها ان أمّهــا تُوُفّيَتْ عندما كانت هي في الخامسةَ عشرةَ وبعدَ أربعِ سنوات قُتِلَ والدُها وأخوها في حادثٍ في منجم الفحم . أما الآن

فليسَ لها أيّ أقارب ، وهي تشعر بأنّها غريبةٌ في هذا المكان .

فنظرَ إليها وقال : « من السهلِ أن يَشعُرَ المرءُ بالوحدة هنا ، فكثيراً ما أتمنى أن أجدَ من أُكَلِّمُهُ . »

فابتسمت وقالت : « وعن ماذا تريدُ أن تكلِّمَهُ ؟ »

— « أوه ، عن عملي ... فلديّ كثيرٌ من المشاكل . »

— « أتريد أن تقولَ إنّ لديك حالاتٍ صعبة ؟ »

فتردَّدَ وقال : « لا ليس تماماً ، ولكن عندما قدِمْتُ الى در اينفي تصوّرتُ أن حياةَ الطبيبِ ستكونُ رائعةً ، أما الآن فقد اكتشفتُ أنها ليستْ كذلك . فالنظام خطأ . فمثلاً يأتي مريضٌ الى العيادة لأخذِ زجاجة من الدواء فاذا به يُعطى ماءً ملوّنة ، وهذا غير عادل ، فالاطباء لا يتكبّدونَ عناءً كافياً لمعرفةِ علةِ المريضِ قبلَ معالجتهِ . إنهم دائماً في عجلة . »

كانتْ كريستين على وشكِ الاجابة عندما رنّ جرسُ الباب فنهضتْ قائلةً : « اتمنى أن تخبرني المزيدَ عنْ ذلك في وقتٍ آخــر . »

ودخل واتكنز وزوجتُهُ . وفي الحال جلسوا للعشاء ... وبعد العشاء قصّت عليهم السيدة واتكنز قصصاً جعلتهُمْ يضحكون جميعاً . فمر المساء سريعاً ، وعندما نظرَ أندرو الى ساعتِه استغربَ انها تقاربُ الحاديةَ عشْرة .

عندئذ نهضَ بحزن وشكَرَ كريستين التي رافقتْه الى الباب ثم قالَ مُتَردِّداً : « لطفاً ، هل أستطيعُ رؤيتكِ ثانيةً يا

كريستين ؟ هل تخرجينَ معي في احدى الامسيات ؟ »

فابتسمت قائلة : « حسناً ، قد أخرج . »

أرادَ انْ يقبِّلَها وأمسك بيدِها للحظة ثم استدار وأسرع في الممر متوجهاً نحو البيت وهو يقولُ لنفسه : « أوه ، انها لفتاةٌ رائعة . »

الفصل السادس

شعر أندرو بفرح وأمل معاً . وهذا الشعورُ بالانفعال أثَّر على عملِهِ . فلقدْ أرادَ أن يفعلَ شيئاً ليجعل كريستين فخورةً بـه .

وفي الاسبوعين التاليين لم يكنْ لديه غير العناية بحالات بسيطة كجروح في الايدي واصاباتِ زُكام . وبدأ يتساءَلُ اذاً كانَ للطبيبِ في مثلِ هذا المكانِ الموحش فرصة العمل بشيء ذي أهمية فعلية .

ولكنْ في السادسة من صباحِ أحدِ الأيامِ أيقظتْهُ « آني » والدموعُ في عينَيْها وسلّمتْهُ رسالةً من الدكتور براموويل ، وبسرعة فتح اندرو المغلفَ وقرأ : « احضرْ بسرعة ؛ اريدُكَ أنْ تساعدَني في أمرِ مجنونٍ خطير . »

ثم قالتْ « آني » وهي تمسحُ دموعَها : « انهُ أخي أملين يا دكتور . لقدْ كانَ مريضاً لثلاثة شهورٍ خلتْ ، وفي الليل أصبح

غير طبيعي وهاجم زوجته بسكين . أسرعْ أيها الطبيب . »

ارتدى اندرو ثيابَهُ في ثلاثِ دقائقٍ وذهبَ مع « آني » الى منزلِ أملين ، وهنالك وجد براموويل جالساً الى طاولةٍ وهو يكتب .

— « آه ، يا مانسون ، شكراً لمجيئك . »

— « ما القضية ؟ »

« لقدْ جُنَّ املين وينبغي إرسالُهُ الى مستشفى الامراض العقلية في الحال ، ولكن لن يسمح له المستشفى بالطبع بالدخولِ الا اذا وقَّع طبيبٌ ثانٍ على تقريري قائلاً إنه مجنون . »

— « وما هي حُجَجُكَ لاعتبارِهِ مجنوناً ؟ »

فقرأ براموويل تقريرَهُ .

وبعد انتهائه وافقه اندرو وقال : « انهُ بالطبع يبدو في حالة سيئة . سأفحصُهُ . »

كانَ أملين في فراشه وقد جلس بجانبهِ خشيةَ أن يهتاجَ مرةً ثانيةً اثنان من أصدقائهِ في المنجم بينما وقفت زوجتُهُ باكيةً عند حافةِ السرير . فشعرَ اندرو بقُشَعْريرة مفاجئة من الخوف واتجه نحو املين وحدّثه ، فأجابه بجواب مُبْهَمْ ورفعَ يدَيْه وصرخ مهدّداً .

لقدْ بَدَتْ على أملين كُلُّ علاماتِ الجنون ، ولكنْ لسببٍ ما بَقِيَ اندرو شاكّاً في أنهُ مجنونٌ فعلاً . وأخذَ يسألُ نفسَهُ عن سببِ تصرُّفِ املين بهذا الشكل. اذ رُبّما كان ثمةَ

سبَبٌ آخرُ لهذا الوضع ثم لمَس وجهَ الرجلِ المتعرّق ولاحظَ بدهشة أن اصبعَهُ لم يتركْ أيَّ علامةٍ عليه . وفي الحال أدرك سببَ المرض .

وحين رجع الى برامويل قال : « إصغِ يا برامويل . أظن أننا يجبُ الا نُوَقّـع على التقرير » .

— « أيه ، ماذا ؟ ولكنّ الرجلَ مجنونٌ » .

فأجاب أندرو : « لا أعتقدُ ذلك ، ففي رأيي أن الرجلَ يعاني من مرضٍ في الحنجرة . فلنحاولْ معالجتهُ بدل إرسالِه الى مستشفى الامراض العقلية . »

وقبلَ أنْ يستطيعَ برامويل مناقشتَهُ خرج اندرو من الغرفة ثم عادَ مع زوجة أملين وأخبرها على مسمعٍ من برامويل ما اعتزم فعلَـهُ .

وبعد اسبوعَيْن تحسّنَ أملين وأصبحَ بامكانِه مغادرةُ سريره . وفي غضونِ شهرينِ عادَ الى عمله .

وفي احدى الامسيات ذهبَ وزوجتُهُ الى العيادة وقالا لأندرو : « نحن مَدِينان لك بكلّ شيء ونودُّ لو تكونُ طبيبَنا الدائمَ في المستقبل ، فبرامويل لا يعرفُ شيئاً . انه عجوزٌ أحمق ! »

فأجاب أندرو : « ليسْ بامكانكما تغييرُ الاطباء وسيكونُ هذا غيرَ عادلٍ بالنسبة لبرامويل . »

غيرَ أن أندرو فرِحَ لرغبتهما في تغيير برامويل ، وما إن انصرفا حتى ذهبَ الى كريستين ليُخبرها بنجاحه .

الفصل السابع

في شهرِ تموز عُقِدَ اجتماعٌ هامٌّ لأطباء بريطانيين في مدينةِ كارديف ، عاصمة ويلز . ولم يكنْ اندرو راغباً في حضورِ هذا الاجتماعِ بسبب النفقات ولكنه تَسلّمَ ، بعد انعقـاد الاجتماع ببضعة ايام ، رسالةً من صديقِه فريدي هامسون يحثُّهُ فيها على الحضور ويدعوه لتناولِ العشاء معه مساء السبت .

فعرَضَ أندرو الرسالةَ على كريستين التي كان يهيمُ بحبها وسألها : « هل ستأتين معي ؟ إذ أنني أريد أن أُعرّفَكِ على هامسون . »

فأجابته : « إنني أتوقُ الى الذهاب . »

ويومَ السبتِ بعدَ الظهر ، ذهبتْ كريستين مع أندرو في القطارِ الى كارديف . وابتسم اندرو لكريستين التي كانتْ تجلسُ في المقعد المقابل . لقد رغِبَ في أن يُقبّلَها ويَضُمَّها إليه ، ثم قالَ لها وهو يتنهّد : « سوفَ نقضي وقتاً ممتعاً هذا المساء ، فهامسون رجل لطيفٌ من غير شك . »

عندَ وصولهما الى كارديف ذهبا الى الفندق حيثُ عُقد الاجتماع . ولم يكن هامسون قد وصَلَ بعد ، فوقفا معاً يراقبان الاطباء وزوجاتِهمْ وهم يتحدثون ويضحكون .

وصلَ بعد قليلٍ فريدي وتقدّمَ منهما قائلاً : « مرحباً ، مرحباً ، انني آسفٌ لتأخُّري . كم أنا سعيدٌ برؤيتكَ ثانيةً



أندرو مع « دني » ٢

يا أندرو ، أرى أنكَ لم تتغيَّرْ ، ولكنْ لماذا لا تشتري بذلةً جديدة؟». وفجأةً تنبّهَ الى وجود كريستين فابتسمَ وقالَ لأندرو : « قدِّمْني إليها يا رَجُل ، ما بالُكَ جامداً ؟ »

ثم دخلوا غرفةَ الطعامِ . وبعد أن طلبوا طعامهم ، بدأ فريدي يتحدثُ عن الايامِ التي قضاها مع أندرو في دراسةِ الطِّبِّ وقال : « لم أظنَّ أنكَ قد تدفن نفسك في بلدةٍ كهذه . »

فسألتْهُ كريستين : « وهلْ تعتقدُ أنه دفَنَ نفسهُ ؟ »

ثم ساد صمتٌ ، فابتسم فريدي لأندرو وسأله : « ما رأيك في هذا الاجتماع ؟ »

— « انني أعتقدُ أن المناقشاتِ تجعلُ معلوماتِ المرء تسايرُ التطـــور . »

— « أوه ، بحقِّ السماء ، انني لا أحضُر أيّاً من هــذه المناقشات ، لقد جئت لأتعرّفَ فقط على مشاهير الاطباء الذين يُفيدونني في مهنتي . وستندهش حتماً اذا ما عرَفْتَ كم التقيتُ من الرجالِ النافعين في الايامِ القليلةِ الماضية. وعندما أعودُ الى لندن سأدعوهم الى وليمةٍ ، وبعد ذلك بوقتٍ قصير سوف نعملُ معاً.»

فقال مانسون : « انني لا أفهمُ يا فريدي . »

— « الامرُ سهل . فعندما يَسْتشيرُني الاغنياء سوف أفحصُهم أولاً ثم أرسِلُهُم الى طبيبٍ آخر لأتحقق من موافقتهِ على رأيي بمرضهِمْ وطريقةِ العلاج . وفي المقابل سيرسل لي هؤلاء الاطباء بعض مرضاهم . عندئذٍ يُضْطَرُّ المريضُ الى ان يَدْفَعَ لكلٍ

منا ، وتلك هي الطريقةُ لجَنْي المال . » ثم ضحكَ فريدي وأضاف : « يجبُ أن تأتيَ الى لندن يوماً ما . وعندها يُمكننا ان نعملَ معاً . »

فنظرتْ كريستين بسرعة الى هامسون وكانت على وَشْكَ الكلامِ الاّ أنها ضبطت نفسها .

ثم ابتسم فريدي وقالَ لمانسون : « والآن ، أخبرني عن نفسك . ماذا كنت تفعل ؟ »

— « أوه ، ليسَ بالشيء الكثيرِ ، فمعظمُ مرضايَ عمالُ مناجم ... »

— « ذلكَ لا يبدو حسناً . »

فقال اندرو : « انني سعيدٌ بعملي . »

وقاطعته كريستين : « كما أنكَ تقومُ بعملٍ هامّ . »

— « أجل ، لقد كانَ لديَّ مؤخراً حالةٌ تدعو للاهتمام . »

وبدأ اندرو يسردُ حالةَ املين ، ولكنّ هامسون لم يكن يُصْغي ...

وفي العاشرة خرج أندرو وكريستين . واثناء سيرهما عائدَين الى المحطة سأل اندرو بتردد : « هل أعجبكِ هامسون ؟ »

— « لا ، ليس كثيراً . إنه متعجزفٌ وهو يَعْتبرُ نفسه أفضلَ منكَ بكثير . إن طريقةَ كلامـِه تثيرُ الاشمئزاز في نفسي . »

فبدا اندرو مندهشاً وقال : « قد يكون متعجرفاً ولكنّهُ في الحقيقة رجلٌ لطيف . »

— « اذا لم تستطـيـعْ أن ترى أيَّ نوعٍ من الرجال هو فأنت أعمى ، انه لا يفكرُ إلاّ بنفسهِ . »

ثم دخلا محطةَ السِّكةِ الحَديدية ، وكان اندرو يَرْغبُ في أن يحدِّثَ كريستين حديثاً خاصاً ولكن التّرامَ كان مُكْتَظّاً فلم يَتمكّنا من البقاءِ وحيدَيْن .

كان الوقتُ متأخراً عندما وصلا الى دراينفي . وبدت مُرْهَقَةً ، فأوصلها اندرو الى منزلها وتمنّى لها ليلةً سعيدة .

الفصل الثامن

وصلَ أندرو إلى منزل بايج عندَ مُنْتَصَفِ الليل فوجدَ جو مورغان بانتظارهِ وعلائم الابتهاج بادية على وجهه .. كان مورغان قد تزوج منذ عشرين عاماً ولكنه لم يُرزق ولداً . فلا عجب إذا ما استبدّ به الفرحُ .. فزوجته تنتظر مولودهما البكر .

وبادره مورغان قائلاً : « اوه يا دكتور ، انني سعيدٌ برؤيتك ، تعالَ بسرعة فزوجتي على وَشْك أن تضع ! »

فهُرِعَ اندرو الى المنزل لإحضار الحقيبةِ التي يضعُ فيها أدواته وأسرعَ نحو بيت مورغان .

وعند وصوله قال له مورغان : « سأنتظرُ في الخارج لانني مضطربٌ جداً . »

وفي الداخل صعد سلّماً انتهى به الى غرفةِ نومٍ صغيرةٍ

نظيفة ولكنها كانت مُؤثّثةً على نحوٍ رديء ومضاءةً بقنديلٍ واحدٍ فقط . هنالك ، وقفت والدةُ السيدة مورغان قربَ السرير ومعَها ممرضةٌ مُكْتَنِزَةٌ تراقبان تعابيرَ وجه اندرو وهُو يدخل الغــرفة .

فابتسم اندرو ليطمئنهما قائلاً : « لا تَقْلَقا ! »

لقد كان يعلَمُ ان هذه الحالة تتطلبُ عنايةً فائقة . واذْ لم يكن باستطاعته فعلُ أي شيء في الوقت الحاضر فقد جلسَ يفكر بكريستين .

وعند الثالثةِ والنصف ، اقترب اندرو من السرير ليباشر عملَهُ ، لقد كانت ولادةً طويلةً وصعبةً ، ومع انبلاجِ الفجرِ وُلِدَ الطفل ... ولكنْ مَيْتاً .

وعندما نظرَ اندرو الى جَسَدِ الطفلِ الساكنِ الشاحب انتابَتْهُ قُشَعْريرةٌ فأسلمَ الطفلَ الى الممرضة ووجّهَ انتباهَه الى السيدة مورغان التي كانت شبْهَ ميْتة ، ثم عَمِلَ بسرعة فائقة فأمسكَ بزجاجة واعطاها دواءً لتقوية القَلْب ، وبعد ذلك بَذَلَ جهداً مَحْموماً لانقاذ المرأة المُشْرِفة على الموت بوسائلَ أخرى . وبعدَ دقائق استعادَ قلبُها نشاطَهُ . وعندما تحقّقَ اندرو من زوالِ الخطرِ عنها استدارَ نَحْوَ الممرضة وصَرَخ قائلاً : « أينَ الطفل ؟ »

فبدَتِ الممرِّضةُ خائفةً ، فقد وضعَتِ الطفلَ تحتَ السرير. وعلى الفور ، ركعَ اندرو وسحبَ الطفلَ وأخذَ يتفحّصُهُ

فرأى أن هنالك أملاً في إعادة الحياةِ إليه. عندئذ قفزَ وأمرَ الممرضةَ قائلاً: «أحضِري ماءً ساخناً وماءً بارداً وأحواضاً، بسرعة!»

— «ولكنْ يا دكتور.»

فصرخ أندرو: «أسرعي.»

وعندما وصلت الاحواضُ ملأ اندرو أحدَها بماءٍ بارد وآخرَ بماءٍ ساخن وأخذ يَعْمَلُ بسرعة كبيرة، فغَطَّسَ الطفلَ في حوضٍ ثم في الآخر وكرَّرَ هذه العمليةَ طيلةَ خمسَ عشرةَ دقيقةً، ولكنْ لم تَظْهَرْ على الطفلِ دلائلُ الحياة.

فقالت الممرضة: «انكَ تُضيعُ وقتَكَ يا دكتور، فالطِّفْلُ مَيْتٌ.»

ولكنَّ اندرو لم يُعِرْها انتباهاً وعادَ يُغَطِّسُ الطفلَ مرةً في الماءِ البارد وأخرى في الماءِ الساخنِ طَوالَ خَمْسَ عَشْرةَ دقيقةً أخرى ولكنْ دونَ جَدْوَى. ثم كرَّرَ ذلك بتصميمٍ ثابتٍ لاعادةِ الحياةِ الى الجسدِ المَيْتِ.

وفجأةً، تحرَّكَ الطفل، وبدأ لونُهُ يتغيّرُ تدريجياً ويزداد احمراراً. وما هي الا لحظاتٌ حتى بدأ الطفلُ يبكي.

فقالتِ الممرضة: «يا إلهي! لقد عادَ الى الحياة.»

عندئذ أعطى اندرو الطفلَ للممرضة، فقد شعر بضعف وشِبْهِ إغماء. وكانت أدواتُهُ المتسخةُ والمناديلُ والأحواضُ تعومُ في بركٍ من الماء في أرضِ الغرفة. ثم قال أندرو

للممرضة: «سأعودُ فيما بعدُ لآخُذَ حقيبتي.»

ونزلَ إلى المطبخ حيث شَرِبَ بعضَ الماء ثم لبِسَ قُبَّعَتَهُ ومعطفَهُ. وفي الخارج وَجَدَ «جو» فقال له: «حسناً يا جو، زوجتُكَ وطفلُكَ بخير.»

كانتِ الساعةُ تقاربُ الخامسةَ وكان بعضُ عمالِ المناجم قد انتشروا في الشارع، وأثناء عودتِه إلى البيتِ أخذَ يفكِّرُ: «لقد حقَّقْتُ شيئاً! يا إلهي، لقد حقَّقْتُ شيئاً هامــاً.»

استحمَّ أندرو لكي ينتعشُ ثم نزلَ لتناوُلِ الإفطار. وكانتِ الآنسةُ بايج قد اكتشفَتْ من سريرِه أنه لم يَبِتْ فيه فرمَقَتْهُ بنظرةٍ قاسيةٍ عندما جلس إلى المائدة وقالت: «لقد عدتَ إلى البيتِ متأخراً. أظن أنكَ أمضيتَ الليلَ في معاقرة الخمر... انكَ سيءٌ كالذين استخدمناهم قبلَكَ، ولستَ أهلاً للثقة.»

فلم يُجِب أندرو. وبعد عيادة الصباح ذهبَ إلى منزل مورغان. وفي طريقه التقى بنساءٍ ابتسمنَ له بطريقة ودية رغم أنه لم يشاهِدْهُنَّ من ذي قبل. وعند وصوله إلى منزل مورغان استُقبِلَ استقبالاً حاراً.

وقالت الممرضة وهي تبتسمُ للأمِّ وطفلها: «يبدو أنهما على ما يرام، أليس كذلك يا دكتور؟ ولكنهما لا يَعْلمانِ مدى المتاعبِ التي سبَّباها لنا.»

فحاولت السيدة مورغان أن تعبّر عن امتنانها قائلة :
« نحن شاكرون لك يا دكتور . هل ذهب « جو » لرؤيتك؟ لا ، على ما أظن ، ولكنّه سيفعل . »

وقبل أن يغادر أندرو المنزل قدمت له الوالدة قدحاً من النبيذ .

وبعد اسبوعين وبينما كان أندرو يقوم بعيادة آخر مرضاه ، طلب مورغان ، الذي كان على وشك الرحيل عن البلاد برفقة زوجته وطفله ، مقابلته .

— « إنّ المال لا يكفي لردّ جميلك ، ولكن زوجتي وأنا نرغب في أن نقدّم إليك هذه الهدية المتواضعة . » ثم سلّم أندرو شيكاً بقيمة خمسة جنيهات .

فقال أندرو ، الذي كان يعلم أن آل مورغان فقراء :
« لا ، لا ، أنا لا أستطيع قبول أية هدية . »

— « ولكن يجب أن تقبلها، نحن نريد ذلك. إنها هدية لك وليست للدكتور بايج ، هل فهمت ؟ »

فأجاب أندرو وهو يبتسم : « نعم فهمت يا جو . »

وأخذ الشيك إلى المصرف الذي يتعامل معه آل بايج وأخبر السيد ريس ، المدير ، أنه يرغب في فتح حساب .

فأخذ ريس الشيك وسأله بتردد : « هل ترغب في فتح هذا الحساب باسمك ؟ »

— « أجل ! لماذا ؟ هل المبلغ ضئيل ؟ »

« أوه ، لا يا دكتور فنحن سعداء بالتعامل معك ، وإنما قلت إنك تريده باسمك أنت . »

— « أجل ، طبعاً . »

— « حسناً ، يا دكتور ! »

وغادر مانسون المصرف وهو يتساءل عما عناه المدير . ومضت الأيام دون أن يجد جواباً على سؤاله .

الفصل التاسع

غادرت كريستين « دراينفي » لقضاء العطلة فشعر أندرو بالوحدة في غيابها . وكان الطقس حاراً ومتعباً فبدت الحياة مملّة . وفي أحد الأيام بعث واتكنز برسالة إلى أندرو يطلب منه فيها مقابلته في مكتبه .

وهنالك رحّب به مدير المناجم بطريقة ودية ثم بادره قائلاً : « إسمع يا دكتور ، ان أملين وعدداً من عمال المناجم قد طلبوا مني أن أجعلك واحداً من أطباء الشركة . »

فنظر إليه أندرو بدهشة وقال : « تعني ... »

وقبل أن يكمل سؤاله ، أجاب واتكنز بهدوء : « أجل ، إنني أرغب في إضافة اسمك إلى لائحة الأطباء بحيث يصبح بامكان كل من يرغب ، أن يترك الدكتور بايج ويتخذك طبيباً دائماً له . »

واشمأزّ أندرو من الاقتراح وقال : « لا أستطيعُ الموافقةَ على ذلك ، وهذا لن يكون عادلاً بالنسبة للدكتور بايج ولا أميناً . »

فخابَ رجاءُ واتكنز وقال وهو يحثّهُ : « فكّرْ في اقتراحي يا دكتور . »

ولكنّهُ أجاب بصرامةٍ وأسىً : « لا فائدة ، لا يمكنني أن أفعلَ ذلك . »

وتمنّى أندرو لو لم تُعرَضْ عليه هذه الفرصة الذهبية ليحسّنَ وضعَهُ . إلا أنهُ حاول إبعادَ القضيةِ عن تفكيرِه بالذهابِ لمقابلة « دني » . وهنالك ، أصيبَ بخيبة واشمئزاز إذ وجد « دني » ثَملاً عاجزاً عن التصرُّفِ والكلامِ باتزان .

فوضعَهُ في سريرِه ، وفي الصباح بعدَ العيادة ذهب إليه ليطمئنَّ عليه ولكنه وجَدَ أن حالتَهُ أسوأ مما كانَت عليه ، فأخذَ يَشتُم « دني » والحرّ ، وأسرع لعيادة مرضى فيليب بالاضافةِ إلى مرضاه .

وعندما عاد إليهِ في المساء صَرَخَ « دني » قائلاً : « إن مهنةَ الطبّ لمهزلة ، بل إنها أسوأ جهازٍ في العالم . أعطني كأساً أخرى ! » ثم توقّفَ بُرْهةً وأضاف : « مانسون ، إنك رجلٌ طيّب ، وأنا أحبُّكَ كأخ . يجب أن نعملَ معاً لنغيِّر بسرعة كلَّ هذه المهنة ... » عندئذ كادَ « دني » يقعُ أرضاً ، فوضعه أندرو في سريره . وطيلةَ أيامِ الأسبوع تولى عنهُ كلَّ أعمالِهِ ، حتى كان يومُ الأحد حين استعاد « دني » صحته .

وقال مانسون ببرود : « إنني أستنتجُ أنكَ كنتَ تقومُ بأعمالي ، يا مانسون . »

كان سلوكُ « دني » غير وُدّيّ مما حملَ أندرو على مغادرة المنزل مخاطباً نفسَهُ قائلاً : « إنهُ يتصرف كمَنْ أدى لي خدمةً بسماحه لي بالقيام بأعماله . »

وعندما وصل إلى البيت صرخت الآنسة بايج : « هذا أنتَ يا دكتور ؟ إنني أريدُ أن أراك ! »

— « ما القصةُ يا آنسة بايج ؟ »

فاتجهتْ نحوَهُ وقالت وهي تحملُ شيك مورغان : « لطفاً ، أوْضِـحْ لي ما هذا ؟ »

وعندما رفع أندرو رأسَهُ شاهد ريس واقفاً خلفَ الآنسة بايج التي قالت : « أجل ، إنني لا ألومُكَ لدهشتِكَ . هلاّ أوضحت لي سببَ إيداعِكَ الشيك في حسابكَ بدلاً من أن تودِعَهُ في حساب الدكتور بايج ؟ »

فغلى الدمُ في عروقِ أندرو وأجاب : « إنها نقودي ، فقد أعطاني إياها جو مورغان هديةً . »

— « هدية ؟ إنه لمِنَ السهل قولُ ذلك لا سيّما وأنّهُ في الخـارج . »

— « أكتبي له واسأليه ، إن كنت لا تثقين في كلامي . »

— « إنني أشُكّ بكلامِكَ ، فأنتَ تحاولُ الاستيلاء على زبائن الدكتور بايج ، وهذا يدلّ على أيّ نوعٍ من الرجالِ أنت . . »

عندئذ تقدّمَ أندرو نحوهما وعيناه مُسْتَمِرّتان على ريس وقال : « إذاً لم تعتذري مني خلالَ دقيقتين ، فسأدّعي عليكِ أمامَ المحكمة وسأعاقبُ مديرَ المصرف بطريقةٍ لم يَعْهَدْها من قبل . »

فتلعثمَ مديرُ البنك وقال بخوف : « إنني لمْ أفعَلْ سوى واجبـي . »

وكرّر أندرو إنذارَهُ : « إنني أنتظرُ يا آنسة ! »

فأدركتِ الآنسة بايج أنها أكثرتْ من الكلام وقالت : « إنني أعتذر . »

عندئذ أخذ أندرو نَفَساً سريعاً وعميقاً وقال : « يا آنسة بايج ، هنالك شيء أودّ أن أخبركِ إياه . ففي الأسبوع الماضي عُرِضَ عليَّ منصبُ طبيبٍ رسميٍّ لدى شركة المناجم ، لكنني رفضتُ العرضَ لأنني اعتبرتُ أن ذلك سيكونُ غيرَ عادلٍ بالنسبة للدكتور بايج . أما الآن ، فقد ضِقْتُ بكِ ذرعاً وقررتُ الرحيل ، وأنني أعطيكِ مهلةَ شهرٍ كإنذار . »

فنظرَتْ إليه بدَهْشة وهي تصرخ : « كذِب ، كذِب ، لا يمكنك أن تعطيَني إنذاراً . »

لكن أندرو لمْ يُضِفْ أيَّ كلمة وصَعَدَ إلى غرفتـه وأقفلَ البـاب .

الفصل العاشر

بدأ أندرو على الفور بالبحثِ عن مَنْصِبٍ آخر ، ولكن لم يَرِدْهُ أيُّ ردٍّ على عروضِهِ ، فانتابَهُ قلقٌ بالغٌ .

وفي أحد الأيامِ وبينما كان يسيرُ في الطريقِ حزيناً التقى « دني » . فقال « دني » بتردد وهو يطرح رمادَ غليونه : « إنني حزينٌ لذهابك يا مانسون . لقد سمعتُ بعدَ ظهرِ هذا اليوم أن جمعية أبيرالو الطبيةَ قد أعلنت عن حاجتها لطبيب ، وأبيرالو تَبْعُدُ حوالى ثلاثينَ ميلاً عن الوادي . فلماذا لا تتقدّمُ لهذا المنصب ؟ »

فنظرَ أندرو بتردُّد وقال : « حسناً ، سأحاول » ثم سار نحو المنزل وكتب إلى الجمعية .

وبعد أسبوع ذهبَ أندرو وسَبْعَةُ اطباء ناشئين إلى أبيرالو ليَخْضَعوا لامتحان لجنة الجمعية . لقد كانَ أصيلَ يومِ صيفٍ جميل فأعجبَ أندرو بـ« أبيرالو » التي كانت أكبرَ مـن « دراينفي » .

« لكنني لن أفوز بهذا المنصب . » قال أندرو ذلك في ما بينه وبين نفسه بينما كان ينتظرُ دَوْرَهُ للامتحان ، فقد كان لباسُ الآخرينَ أفضلَ من لباسه كما كان مَظْهَرُهم يُوحي بالثقة بالنفس أكثرَ من مظهره . ولكن ، ماذا ستقول كريستين في حالِ رسوبِهِ ومن المنتظَرِ أن تعودَ اليوم أو غداً إلى

درانيفي ؟ إنهُ لمْ يخبرها عن الطلبِ الذي تقدَّمَ بهِ ، إذْ أراد أن يجعلَ من نجاحه مفاجأةً لها .

ودخل أندرو ، وكان الثالثَ بين المتقدمين للامتحان ، غرفةَ اللجنة يلازمهُ شعورٌ من الخوفِ والتصميم . هنالك ، كان بانتظارهِ حوالى الثلاثين من عمالِ المناجم ، وجلس رجلٌ شاحب اللون إلى طاولةٍ صغيرة، لقد كان هو أووين السكرتير .

تولى أووين شرحَ الجهازِ الطبّيّ في أبيرالو بصوتٍ هادىء :
« يدفعُ عمالُ المناجم جزءاً من رواتبهم كل اسبوعٍ للجمعية ، ومن هذا الدَّخل تُموِّلُ الجمعيةُ الخدماتِ الطبيةَ بما في ذلك المستشفى ، وتستخدمُ الجمعيةُ الدكتور لويلن بوصفه كبيرَ الأطباء ، يساعدُهُ أربعةُ أطباء وطبيبُ أسنان . ويتقاضى كلُّ طبيبٍ أجراً عن كلِّ مريضٍ على لائحته . » ثم استدار أووين نحو اللجنةِ وأضاف : « والآن أيها السادة ، هل ترْغبونَ في طَرْحِ أيِّ سؤالٍ على الدكتور مانسون ؟ »

وهنا سُمِعَتْ عِدَّةُ أصواتٍ تَطْرَحُ الأسئلة على أندرو بصوت عال ، بينما أجاب أندرو عنها بهدوء . ثم عادَ إلى غرفةِ الانتظار ودخل الرَّجُلُ الآخر .

عادَ الرجلُ الأخير من امتحانهِ تعلو وجهَهُ ابتسامةُ رضى ، وكأن تعابيره تقول : « إنني الفائز . »

وتلا ذلك انتظارٌ طويلٌ آخر . وأخيراً فُتح بابُ الجمعيةِ وخرج أووين وقال : « أرجو أن تتفضَّل بالدخول يا دكتور

مانسون فاللجنةُ ترغبُ في رؤيتك ثانيةً . »

لحقَ أندرو بالسكرتير وقلبُهُ يخفق ، فدخلا غرفةَ اللجنة حيث استُقْبِلَ بوجوه باسمة، وخاطبه أووين قائلاً :
« سنكونُ صريحين معك يا دكتور مانسون ، فاللجنة كانت قد قرّرت بناءً على نصيحة الدكتور لويلن تعيينَ طبيب ذي خبرة في هذا الوادي ، ولكنها تَشْعُر الآن أن اختيارَك أفضل . »

ولم يقوَ أندرو على الابتسام لشدَّةِ انفعاله .

ثم أوضح أووين قائلاً : « وأودُّ أن أضيفَ أن اللجنة تأثرت برسالتين تسلَّمَتْهما من طبيبَيْن في بلدتك . الأولى من طبيب يُدعى « دني » ، والثانية مرسلة ضمن رسالة « دني » ومُوقَّعةٌ من الدكتور بايج الذي كان يَسْتخدمُك . هذان الطبيبان أثْنَيا على عملك إلى حدٍّ جعلَ اللَّجنَةَ تَعْرِضُ عليك هذا المنصب .

عندئذٍ أطرقَ أندرو وتفكيرُهُ منصبٌّ على حُسنِ صنيع « دني » .

وأضاف أووين قائلاً : « ولكنَّ هنالك عائقاً واحداً ، إذ يجبُ أن يُعطَى هذا المنصبُ لرجل متزوِّج . فعُمال المناجم يُوَدُّون أن يُشرف على عائلاتهم أطباء مُتزَوِّجون ، مع العلم أن المنزل مؤمَّنٌ دونَ مقابل . »

وتبعَ ذلك صمتٌ طويل ، وعيونُ الجميع شاخصةٌ على أندرو الذي أجابَ بهدوءٍ : « حسناً أيها السادة ، فسأتزوجُ من

فتاةٍ في دراينفي . »

عندئذ علَت الأصواتُ بالهتاف . وقال أووين : « إذاً ، فقد تم تعيينك يا دكتور مانسون . ولكنْ متى يمكنكَ البدءُ في العمـــل ؟ »

فأجاب مانسون : « يمكنني البدء في الاسبوع المقبل . »

ولكن سُرعانَ ما عرَتْهُ قُشَعْريرة حين خطر له ان كريستين قد ترفض الزواج منه .

بعدَ دقائقَ معدودة خرج أندرو مُنْفعلاً وأسرعَ نحو محطةِ السكة الحديديةِ ليَلْحقَ بالقطارِ الثاني إلى منزلِه في دراينفـــي .

وما إن وصلَ إلى دراينفي حتى اتجهَ مباشرة إلى منزل كريستين ليتحقق من رجوعها من العطلة . كان النور مضاءاً في غرفتها فاندفعَ إلى المنزلِ وهو ينادي : « كريستين ! »

فنظرت إليه بدهشة وقالت : « أندرو ، كم هو لطيفٌ منك أن تعرّج . »

— « كريس ، إنّ لديّ ما أقولُه لك . »

عندئذ علتْ وجهَها مسحةُ قلقٍ وقالت : « مـــاذا حصَل ؟ هل هنالك المزيدُ من المتاعبِ مع الآنسة بايج ؟ هل ستَرْحل ؟ »

فهزّ رأسَهُ وقال : « كريستين ، لقد حصلتُ على منصبٍ جديدٍ وممتاز في أبيرالو بأجر سنوي قدرُهُ خمسمئة جنيه

بالاضافة إلى منزل . منزل يا كريستين ! يا حبيبتي كريستين . هل تقبلينَ بالزّواج مني ؟ »

وشَحُبَ لونُها ولمَعَتْ عيناها وقالتْ بهدوء : « لقد ظننتُ أنك ستخبرُني أخباراً سيئة . »

فصرخ أندرو : « لا ، لا ، أروعُ الأخبار يا حبيبتي ، أوه ، يا كريس ، إنني أحبُّكِ كثيراً ، ولكنكِ ربمـــا لا تبادلينني الشعورَ نفسَه » .

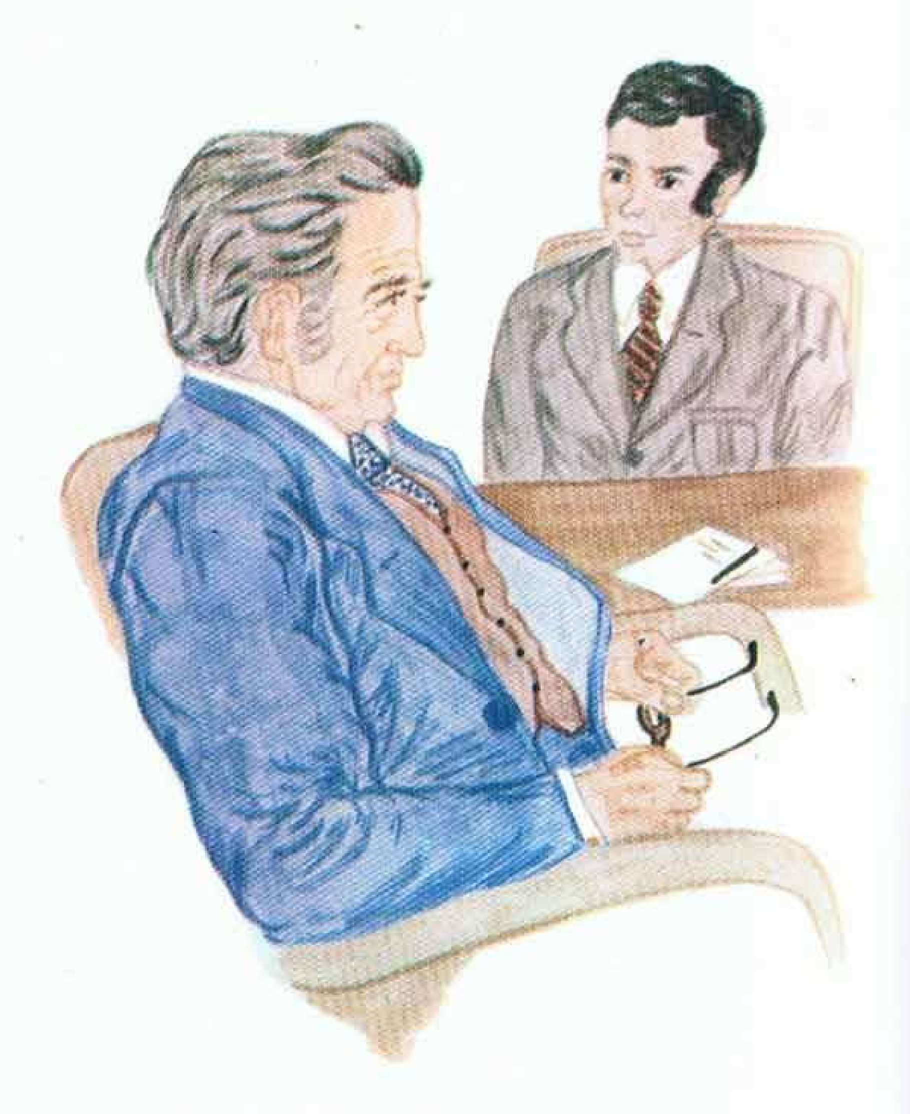
فاتجهت نحوه وألقت برأسها على صدره . ثم قالت : « لقد أحببتك يا حبيبي مذ شاهدْتُكَ تَدْخُلُ المدرسة . » .

الفصل الحادي عشر

بعدَ أيامٍ تزوّجَ أندرو من كريستين . وفي الصباحِ نفسه شحنا عِدّةَ قِطَعٍ من أثاث كريستين وأدواتِ مطبخها ، في سيارة جون لوسين القديمة إلى أبيرالو .

كان الجوُّ مشرِقاً ومُشْمِساً ، وضحكا وتداعبا بينما كان لوسين ، المُهْمِل ، القصير القامة يُخرِجُ زجاجةً من جيبه ليشرَبَ نَخْبَ سعادتِهما المقبلة . ثم تناولوا الغداء في فندق مُنْعَزِلٍ في أعالي الجبال ، وبعد ذلك بدأوا بالانحدارِ في الوادي نحو أبيرالو في طريقٍ ضيّقٍ وَعِر .

وأخيراً ، وبعد عبورِ منعطفَيْن خطِرَيْنِ وَقَعَ نظرُهُم



أندرو و « أبي » ٣

لأوّلِ مرةٍ على أبيرالو . وكم كانت جميلةً تلك اللحظة ، فلقد امتدّتِ البلدةُ أمامهم ببيوتها المُبَعثَرة من أعلى الوادي حتى أسفلِه بينما تجمّعَتْ دكاكينُها ومكاتبُها وكنائسُها في طرَفٍ واحدٍ من البلدة ، وكانتِ المناجمُ والمداخنُ في الطرفِ الآخـــر .

وهمَسَ أندرو وهو يَضْغَطُ على يدها بإحكامٍ قائلاً : « أنظري يا كريس ، انظُري ، انه لمكانٌ رائعٌ ، أليس كذلك ؟ هنالك الساحةُ يا عزيزتي . انني أتساءلُ عن موقع منزلنا . »

وهنا استوقفوا أحدَ عمالِ المناجمِ الذي أرشَدَهُمْ إلى « فايل فيتو » .

وأخيراً وصلا إلى « فايل فيتو » ، المنزل الكبير البشع الذي أصبح منزلَهُما ، فتساءلت كريستين : « حسناً ، انه لطيفٌ ، أليس كذلك ؟ »

— « أجل يا عزيزتي ، يبدو مُمْتعاً . »

وبلهفة دخلا كُلَّ غرفة ، فقدْ كانَ هنالك الكثيرُ من الغرفِ وكانَت كلُّها كبيرة جداً بحيث أنهما لم يتمكّنا من فَرْشِ اكثرَ من غرفتين . ثم أنهيا جَوْلتَهما في المطبخ حيثُ طَهَت كريستين بعضَ البيضِ ، فقال : « بحقّ السماء ، انتِ طاهيةٌ ماهرة يا عزيزتي . فهذه أطيبُ وقعة تناولتُها ... أوه ، إنني متلهفٌ لمباشرة عملي إذْ يفترضُ أن يكونَ هناك الكثيرُ من الفرص . »

وفجأةً وقعَ نظرُهُ على علبةٍ في الزاوية فسألَ كريستين عنها فأجابته : « انها هديةُ زواجنا من دني » .

عندئذ تغيَّرَتْ تعابيرُ أندرو ، إذ أن سلوك « دني » كان فاتراً عندماً شكرَهُ أندرو لمساعدتهِ في الحصولِ على المنصبِ الجديد وعن عزمهِ على الزواجِ من كريستين إلى درجة أنه لم يودِّعْهُما في ذلك الصباح . هذا التصرفُ غيرُ الودِّي آلَمَ « دني » الذي فتحَ العُلْبةَ ظاناً أنها مزْحة ولكنَّهُ سرعانَ ما صرخَ فرحاً عندما رأى داخلَ العُلبة مجهرَ « دني » مع عبارة تقول : « الواقع أنني لم أعُدْ بحاجةٍ اليه ، أتمنى لك حظاً سعيداً . »

وتناول أندرو المجهرَ وحملَهُ إلى غرفةٍ أخرى حيث وضعَهُ برفْقٍ على الأرضِ وهو يقُولُ : « عرْفاناً مني بحسنِ صنيعِ صديقنا الطيب فيليب دني سأحوِّلُ هذه الغرفة من الآن إلى مختبرٍ لي » .

وفجأة رنَّ جرسُ الهاتف .

كانَ الدكتور لويلن يتكلّم قائلاً : « هالو ، مانسون ، كيف الحال ؟ أريدُ أن أرحبَ بك وبزوجك في أبيرالو . »

— « شكراً يا دكتور ، هذا لطفٌ بالغٌ منك . »

— « سنتناولُ العشاء معاً في منزلي الليلةَ حيثُ يكون باستطاعتنا أن نتبادلَ الحديث ، سنكونُ بانتظاركما الساعةَ السابعةَ . إلى اللقاء . »

فأسرَعَ أندرو إلى كريستين وأخبرَها بنبأ الدعوة .

واستقبلَهُما الدكتور لويلن وزوجتُهُ بحفاوة بالغة. وأثناء العشاء، وبينما كانت السيدة لويلن تتحدّث مع كريستين قال لويلن مخاطباً أندرو: « لدينا عيادتان. واحدة في الطرف الغربي من البلدة وأخرى في الطرف الشرقي. وستعملُ أنت في العيادةِ القريبةِ مع الدكتور أركهارت والصيدليّ غادج. أما العيادة الشرقيةُ ففيها طبيبان: الدكتور ميدلي، والدكتور أوكسبورو. والجميعُ لطفاءُ وأظنُّ أنكَ ستحبهم. وبالنسبة إليّ، فإن كثرةَ أشغالي تَحُولُ دُونَ عملي في هاتين العيادتَيْن إذْ لَدَيّ الكثيرُ من المسؤوليات. فأنا مسؤولٌ عن المستشفى وأنا ضابطُ البلدة الطبي بالاضافة إلى العديد من المناصب الهامة وعيادتي الخاصة. »

فقال مانسون: « لديكَ الكثيرُ من الأشغال حقاً! »

فابتسم لويلن قائلاً: « يجبُ أن أجمعَ بعضَ المالِ يا دكتور مانسون! وجديرٌ بالذكر أن الأطباء اتفقوا على دفعِ جزءٍ بسيط من رواتبهم لي. »

فنظر إليه أندرو بدهشة.

ولكنه أضاف قائلاً: « ذلك لأنني أُشرِفُ على مَرْضاهم عندما يستبدّ بهم القلق، وعلى كل حالٍ سنبحثُ هذا الأمرَ في وقتٍ آخر. »

في هذه الأثناء، نادتِ السيدة لويلن زوجَها وهي تُمْسِك بيد كريستين قائلةً: « لقد تزوّجا هذا الصباح، أخبرتني السيدة

مانسون الآن بذلك الآن.. »

وهنا قال مانسون بتردُّد: « هذا صحيح، ولقد كنتُ أتساءل يا دكتور إذا كنتَ تسمحُ لي بالذهابِ إلى لندن لشراء أثاث لبيتنا. »

— « طبعاً! بإمكانِكَ أن تتغيّبَ عن العملِ غداً وبعد غـد. »

وفي العاشرة قادَ « لويلن » أندرو وكريستين إلى المستشفى حيثُ كانَ ينتظرُهُ بعضُ المرضى. لقد كانَ المستشفى جيد البناء رغمَ صغرِهِ وبدا أنه مجهّز تجهيزاً حسناً. وقال أندرو بينه وبين نفسه: « يا إلهي! إنه لممتاز، وسأشفي مرضايَ هنا. »

ثم إن أندرو وكريستين رجعا إلى منزلهما. وفي الطريق قال أندرو: « إنني أحبُّهُ، بل أحبُّهُ كثيراً، انما لماذا يجب أن أدفعَ له جزءاً من راتبي؟ هذا غير عادل! »

وعندما وصلا إلى بيتهما وقفا معاً في الرواق المظلم فطوّقها « دني » وهو يهمسُ: « ما اسمك يا حبيبتي؟ »

فأجابت بدهشة: « كريستين. »

— « كريستين ماذا؟ »

— « كريستين مانسون. » وتلاحقت أنفاسها الدافئة فوق شفتيه.

الفصل الثاني عشر

وفي اليوم التالي ذهبا إلى لندن حيثُ ابتاعا بالتقسيط بعض المفروشات الرخيصة . وصباح يومِ الخميس بدأ أندرو العملَ في العيادةِ الغربية ، وكان أولُ مرضاهُ رجلاً يشكو من ركبتِهِ ويطلبُ تقريراً يثبتُ فيه أنه لا يستطيعُ العملَ . ففحصَهُ أندرو وأعطاهُ تقريرَهُ . كذلك طلب ثلاثةُ مرضى آخرين تقاريرَ طبية .

عندئذ خرَجَ أندرو وفتَحَ باب غرفةِ الانتظار وسأل بصوتٍ عالٍ : «كم رجلاً يطلب منكم تقريراً ؟ ليتفضَّلْ طالبو التقارير بالوقوف !

كان هنالك أربعون رجلاً وجميعهم وقفوا .

وما إن أعلنت الساعةُ العاشرةَ والنصف حتى كان أندرو قد أنهى معايناته . ومن ثَمَّ دخل عليه عجوزٌ أحمرُ الوجهِ وكان هذا هو الدكتور إركهارت .

وقبل أن يُعرِّف عن نفسهِ قال إركهارت : « بحق السماء ، أين كنت في اليومين الماضيين ؟ كان عليَّ أن أقوم بعملك نيابةً عنك . ولكن دعك من هذا ! وتعالَ أعرفُكَ إلى غادج ، إنَّهُ رجلٌ بائس ولكنَّهُ بارعٌ في عمله . »

لحق أندرو بـ « آركهارت » إلى غرفةِ أخرى حيثُ وجدَ غادج ، وكان رجلاً نحيلاً محزون الملامح لم يَشعر بوجود أندرو .

وقال أركهارت بعد أن أجرى التعارف بينهما : « حسناً ، هل من سؤال ؟ »

فقال أندرو : « إنني قلقٌ من عددِ التقاريرِ التي كان عليَّ أن أوقعَها هذا الصباح ، فقد بدا بعضُ الرجالِ مؤهلّين للعمل ، وعلى الطبيب ألاَّ يعطيَ التقاريرَ من غير ما سبب . »

فنظر إليه إركهارت بسرعة وقال : « خُذْ حِذْرَك ، فسينزعج الرجال إذا رفضتَ تزويدهم بالتقارير . »

ولكنَّ آندرو كان قد عقد العزم على أن لا يعطي أيَّ تقرير ما لم يَكُنْ ضرورياً ، ثم ذهب إلى عيادتِهِ المسائية وهو يَستشعر القلق . وهناك وجَدَ جمهوراً أكبر من ذاك الذي كانَ في فترةِ الصباح . وكان أول مريض دخَلَ عليه رجلاً ضخماً ، سميناً بدا وكأنَّهُ لم ينجِزْ طيلة حياتهِ أيَّ عمل يومي بإخلاصٍ . كان اسمُهُ بن شنكن .

وقال شنكن بخشونة : « أعطني تقريراً ! »

فسأله أندرو : « ولأي سبب ؟ »

فمدَّ شنكن يده قائلاً : « مرض جلدي ، أنظُرْ ! »

كان باستطاعةِ أندرو أن يرى على الفور أن شنكن لم يكنْ يشكو من شيءٍ خطير ، فنهض من كرسيهِ وأمرَهُ بخلعِ ثيابِهِ .

وهنا تساءل شنكن : « ولأي سبب ؟ »

– « لأنني سأفحصك . »

عندئذٍ خلَعَ شنكن ثيابَهُ رَغمَ أن الطبيبَ السابق لم

يسبقْ له أن كَشَفَ عليه .

وبعد أن فحصَهُ أندرو بدقة قالَ له بحدة : « إرتدِ ثيابكَ يا شنكن » ثم جلَسَ يكتبُ تقريراً تناوله شنكن وقالَ بخشونة : « لقد توقعت أنك ستعطيني تقريراً . » ثم اندفعَ خارجاً من العيادة .

لكنّهُ ما لبِثَ أن عادَ بعدَ خمسِ دقائق وهو يصرخ : « ماذا تقصِدُ بهذا ؟ » ودفع بالتقرير في وجهِ أندرو .

وكان نصّ التقرير : « إن هذا يثبتُ أن شنكن يشكو من آثار الإسراف في معاقرة الخمر ، ولكن في استطاعته الاستمرار في العمـــل . »

فصرخ شنكن : « إنني أشكو من مرضٍ جلدي أعاني منه منذ خمس عشرة سنة . »

فأجابه أندرو : « حسناً ، لقد زال الآن . » وفي هذه الاثناء تجمّعَ حشدٌ قرب الباب المفتوح حيثُ وقف إركهارت الذي بدا متحمساً وغادج وقد علتْ وجهَهُ ابتسامةٌ باهتة .

ثم صرخ شنكن : « هل ستعطيني تقريراً ؟ »

— « لا ، لن أعطيك . وانصرف من هنا قبل أن ألقي بكَ خارجـــاً . »

وبدا وكأن شنكن سينقضُّ على أندرو ، ولكنّهُ استدارَ خارجاً من العيادة وهو يصرخُ شاتماً .

وما إن خرَجَ شنكن حتى دخَلَ غادج وهو يفرك يديه

بسرور وقال : « هل تعلمُ من هو ؟ إن نجلَهُ عضوٌ هامٌ في اللجنـــة . »

وعلى الأثر أحدثت قضية شنكن ضجةً . فبعضُ الناس سرّهُ أن يذهَبَ شنكن إلى عملِه أخيراً ، ولكن معظمَهُمْ تعاطَفَ معَهُ .

وبينما كانَ أندرو يعودُ مرضاهُ في البلدة ، تلقى نظرات معادية وقد كان بانتظارِه المزيدُ من المتاعب إذ كان يحقُّ للمرضى أن يختاروا طبيبَهمْ وكان كلُ مريضٍ يُعطي بطاقتَهُ للطبيب الذي اختارَهُ ، فإذا ما رغِبَ في استبداله فباستطاعته أن يطلُبَ استعادةَ بطاقته ويسلمها إلى طبيبٍ آخر . وطوال ذلك الاسبوع ، كان الناسُ يأتونَ كلّ مساءٍ إلى عيادة أندرو طالبين بطاقاتِهِمْ . وكانت كل بطاقة يعيدها تخفّض من راتبه .

وحذّرهُ إركهارت بقوله : « إحترسْ يا رجل ! انني أدركُ شعورَكَ فأنتَ تريدُ تحسينَ الأوضاع ، ولكني أسألك أن تفكّر قبلَ أن تتصرفَ . »

وتصرّفَ أندرو بحذر كبير ، ولكنّهُ سرعانَ ما وقَعَ فريسةَ متاعبَ جديدة . فقد استُدعيَ إلى منزل توماس ايفانز وهو عامل منجمٍ كان قد سَكَبَ ماءً ساخناً حتى الغليان على ذراعِه اليسرى . وعندما وصَلَ أندرو وجَدَ أن ممرضَةَ المنطقة قد وضعَت زيتاً على الحرق .

تفحّصَ أندرو الذراع ، ووجد أنهُ ما لم يغيّر العلاج

فوراً ، فإن ذراعَ الرجل ستصابُ بالتسمم . فأخذ ينظفُ الجرح ويعالجهُ بعنايةٍ فائقة ثم وضع عليه ضمادةً جديدة .

وعندما انتهى من عملِه سألَهُ ايفانز بقلق : « هل ستكونُ على ما يرام يا دكتور ؟ »

فابتسمَ أندرو وطمأنَهُ : « أجل ، دعْ عنكَ هذا الأمر للممرضةِ ولي ! »

وقبلَ أن ينصرِفَ أندرو دوّن للممرضة ملاحظةً قصيرة يشكرُها فيها لما قامتْ به ويسألها أن تتابِعَ علاجَهُ .

وفي الصباح ، عندما رجعَ إلى المنزل ، وجَدَ أن الضّمادة قد نُزِعَتْ ، وأن الذراع قدْ عولجتْ ثانيةً بالزيت .

وكانت الممرضةُ بانتظارِهِ فسألها بغضب : « كيف تعلّلينَ هذا التصرف ؟ »

وشعر أندرو بانزعاج ، لكنّهُ حاولَ الابتسامَ وقال : « والآن ، أيتها الممرضة ، لا ... »

« لقد عملتُ هنا لعشرينَ سنةً خلَتْ، ولم يسبقْ لأحد أن قالَ لي أن لا أعالجَ الحروقَ بالزيت . »

فحاولَ أندرو أن يثبّتَ نظريتَهُ قائلاً : « إسمعي أيتُها الممرضة . هناك خطر التسمم ولذلك أريدُك أن تُجرّبي علاجي. »

— « ولكنني لم أسمع بهذه المعالجة من ذي قبل . فالدكتور

إركهارت لا يصفُها وإنني أرفُضُ تلقي الأوامرَ من شخصٍ لم يمضِ على وجودِهِ هنا غيرُ اسبوعٍ واحد . »

وبرغم أنه كانَ من الخطرِ أن يتشاجَرَ مع الممرضة فقد فضّلَ أندرو عدَمَ المجازفة بصحة مريضِه وقال لها بصوت خافت : « إذا رفضت معالجتَهُ على طريقتي فانني سأحْضُرُ كلَّ صباحٍ وكلَّ مساء لأعالجَهُ بنفسي . »

فصرخت الممرضة قائلة : « حسناً ، إفعل ! وانني آمل أن ينجو ايفانز . » ثم اندفعت خارجة من المنزل .

وبهدوء انكبَّ أندرو على معالجةِ الذراعِ المصابة ، وعندما خرجَ وعدَ بالرجوع في التاسعة مساءً .

وفي الليلة نفسها حضرت السيدة ايفانز إلى العيادة وقالت بوَجَل : « انني آسفة لازعاجكَ يا دكتور ، ولكنني أرغبُ في استعادة بطاقة زوجي إذا سمحت . »

فنهض أندرو دون أن ينبِسَ ببنت شفة وبحثَ عن البطاقة وسلمَها إياها .

وعندما عادَ إلى منزله بعد المعاينة ، كانَ صامتاً ، وبعد العشاء جلسَ بجانبِ كريستين وألقى برأسه تجاهَها وقال بأسى : « أوه ، يا حبيبتي لقد بدأتُ على نحوٍ رديء » . واغرورقتْ عيناهُ بالدمع .

الفصل الثالث عشر

ومرَّ أندرو بفترة حرجة ، فقدْ أصبحَ جميعُ أصدقاءِ شنكن وأقربائه أعداءَهُ ، فضلاً على أنَّ ممرِّضةَ المنطقــة حاولتْ أن تُقنِــعَ مرضاهُ بالتخلي عنه ... وما لبثَ أن أُصيبَ بخيبةِ أملٍ أخرى ، إذ أن الدكتور لويلن رفضَ السماح له باستعمالِ المستشفى .

وروى لكريستين باشمئزاز ما حصل له : « هل تدرين ما حصل هذا الصباح يا كريس ؟ لقد احتجتُ لأوّل مرة إلى معالجةِ أحدِ مرضايَ في المستشفى ، فهتفت للدكتور لويلن طالباً إذنَهُ ، فجاء بسيارتِهِ الفخمة ليفحصَ الرجل بنفسِهِ ، وقد سُرَّ كثيراً ووافقفوراً على إدخال المريضِ إلى المستشفى ، ولكن ، قبل أن أتمكّنَ من شُكرِهِ قالَ لي أنّهُ سيتولى هو هذهِ القضيةَ ، كما أوضحَ أنهُ يُشرفُ على جميع مرضى المستشفى وانه ... »

وهكذا بدأ أندرو يعتبرُ نفسَهُ فاشلاً .

وفي نهاية الاسبوع جاءه أووين سكرتير الجمعية ، فشحب لونه وتساءل بينه وبين نفسه : هل قررت اللجنة طردَهُ بسبب فشلِهِ ؟ هل سيُلْقَى به وزوجته في الشارع ؟ وفجأة أبرز أووين بطاقةً صفراء وقال : إنني آسف لازعاجك بهذه الزيارة المتأخرة ، ولكنني أودُ أن أعطيكَ بطاقتي الطبيةَ لأنني أرغبُ

في أن تكونَ طبيبي . »

فتلعثم أندرو ثم قال : « شكراً لك يا سيد أووين . سأكون مسروراً بإضافة اسمكَ إلى لائحتي . »

ثم دعتهُ كريستين التي كانت تقفُ في الرواق للدخول إلى غرفةِ الجلوس حيث راحوا يتبادلون الحديث .

وهنالك أخذ أووين يواسيه : « لا تفقد الأمل يا أندرو ، إذ ليسَ من السهل فهمُ الناس هنا لكنهم في الحقيقة لطفاء ، وعندما تتوثقُ معرفتهم بك سيحبونكَ ويتغير سلوكهم تجاهك . »

وقبلَ أن يتمكنَ أندرو من الإجابة سأله أووين : « هل سمعت شيئاً عن ايفانز ؟ لا ؟ ان الزيتَ الذي حذَّرْتَ الممرضةَ من استعمالهِ أدى إلى ما كنتَ تخشاهُ ، فتعطلت يدُهُ وأصبحَ عاجزاً عن العمل . »

عندئذ عبَّر أندرو عن أسفه وشعرَ بحزنٍ عميق لأن الجرحَ البسيط الذي كان بالامكانِ معالجَتُهُ ببساطة هدمَ حياة ايفانز .

وبعدَ لحظة صمت تحدَّث أووين عن حُلمِهِ الكبير برفع مستوى حياة عمّالِ المناجمِ في أبيرالو ، وعن رغبتِهِ في تحسين الخدمات الطبية وبناءِ منازلَ أفضلَ لهم ، وجَعْلِ المناجم نفسِها صحيةً أكثر .

وهنا أخذ أندرو يحدّث أووين عن اعتقادِهِ بأن غبار نوع معين من الفحم يسبب مرضاً رئوياً ، وقال بلهفة : « هؤلاءِ الرجال يعملون في الفحم طوال اليوم . ويتنشقونَ غبارَهُ فيدخُلُ

رئاتهم ، قد أكونُ مخطئاً في رأيي ولكنني لا أظنُ ذلك ، فقد أجريتُ بعضَ الاختبارات العلميّة حول الموضوع . ولكن ما أثارني هو أن أحداً لم يجُلْ بخاطرِه هذا الموضوع من ذي قبـــل . »

فقال أووين : « يا إلهي ، هذا شيء بالغ الأهمية . »

وهكذا طالت المناقشة حتى وقتٍ متأخر . وعندما خرجَ السكرتير وأقفلَ أندرو البابَ الامامي خلفه قال لنفسه : « إن هذا الرجلَ صديقي . »

انتشرَ نبأ اعطاء السكرتير بطاقتَهُ لأندرو بسرعةٍ في المنطقة مما ساهَمَ في تحسين شهرة الطبيب الجديد .

وبعدَ ظهرِ أحد أيامِ ديسمبر ، وبينما كان أندرو عائداً إلى البيت شاهَدَ شاباً متجهاً نحوَهُ ، وسرعان مـــا أدركَ أنه ريتشارد فوغهان ، أحد المدراء في شركة مناجم أبيرالو ، فحاول أندرو تجنُّبَهُ ولكنهُ دُهِشَ عندما ناداهُ فوغهان بصوتٍ وديّ قائلاً : « مرحباً ، أنت الذي أعادَ شنكن للعمل ، أليس كذلك ؟ » فتوقف أندرو وأجاب بالإيجاب . فقال فوغهان : « أنت أقربُ جارٍ لنا . وبما أنكم تركَّزْتُمْ الآن فإن زوجتي ستقومُ بزيارةٍ لزوجتك . » فشكرَهُ أندرو ببرود ثم تابــع سيرَهُ .

وعندما وصل إلى منزله أخبرَ أندرو زوجتهُ عن ذلك وهو يتساءل « لماذا كان لطيفاً لهذهِ الدرجة ؟ الأمرُ غامض ! لقدْ

شاهدتُهُ يمرُّ بالقرب من لويلن في الطريق دونَ أن يرفعَ نظرَهُ إليه ... ربما كان يريد إقناعي بإعادةِ المزيد من الرجال إلى العمل في المناجم ! »

فقالتْ له كريستين : « أوه يا أندرو ، لا تتغابى ! مشكلتك أنك كثيرُ الشكِ بالناس . »

— « طبعاً أنا أشكُ بفوغهان ، فهو متعجرفٌ ويملك الكثير من المال ، كما أنهُ ليسَ مخلصاً ؛ وزوجتُهُ لن تأتيَ لزيارتنا . »

ولكن السيدة فوغهان عـرّجت بالفعل على كريستين التي سُرَّت بزيارتها . وبعدَ عشرة أيام ، هتفت السيدة فوغهان لتدعوهما إلى العشاء ، وأجابَ أندرو على الهاتف بنفسه : « أخشى أن لا نتمكنَ من تلبيةِ الدعوة ، فأنا أعملُ في العيادة حتى التاسعة من كل مساء . »

فقالت السيدة فوغهان بصوت ناعم : « باستثناء يوم الأحد. سنكون بانتظاركُمْ على العشاء يوم الاحدِ القادم ، إلى اللقاء . »

فهُرِعَ أندرو إلى كريستين وأخبرها : « لقد دعـــانا أصدقاؤك الأثرياء إلى العشاء . ولكنّا لن نتمكن من الذهاب! »

فأجابتهُ بحزم : « اسمَعْ يا أندرو مانسون ! يجب ألا تكون سخيفاً إلى هذه الدرجة فنحنُ فقراء والجميع يعرفون ذلك ، ولكن هذا لا يَهُـمّ ، فآلُ فوغهان أثرياء لكنهم لطفـــاء وأذكياء ، فلماذا لا نصادقهم ؟ لا تَخْجل من الفقر . »

— « أوه ، حسناً ... »

وهكذا ذهبا يوم الأحد إلى منزلِ آل فوغهان اللذين استقبلاهما بحفاوة وكان إلى جانبهما هنالك ضيفان آخران هما السيد والسيدة كاليز .

وشعرَ أندرو بارتباكٍ وهو يدخلُ المنزل الفخم الذي لم يسبقْ له أن رأى مثلَهُ . وأثناء العشاء ، جلستِ السيدة فوغهان بجانب أندرو وحاولت محادثتَهُ بالسؤال عن رأيهِ في كيفية تحسين الجهاز الطبي في أبيرالو .

فقال أندرو وهو يسكب حساءَهُ : « حسناً ... اني لا أعرف .. انني أعتقد .. » ولم يكن باستطاعته المناقشة حتى في موضوعهِ المفضّل ، فأخذَ يتطلعُ إلى صحنهِ ، ولكن السيدة فوغهان أسعفَتهُ حين التفتتْ لتتحدثَ مع السيد كاليز الذي كان يشغَلُ منصباً هاماً في جامعة كارديف .

كانت كريستين هادئة ومطمئنة ، وشاهدها أندرو تبتسمُ لكاليز كما سمعَها تشاركُ في محادثة عالية الثقافة ، فأثارتْ إعجابَهُ طريقةُ مناقشتها لكاليز . ولقد حاولت عدةَ مرات أن تُشرِكَ أندرو في المناقشة قائلةً : « ان زوجي يهتَمُّ كثيراً في عمال المناجم يا سيد كاليز ، وهو يُجري بعض التجارب حولَ تنشُّقِ غبار الفحم . »

— « أوه ، صحيح ؟ »

فقال أندرو : « لست أدري ، ليس لذلك أية أهمية . » لكنهُ ما لبثَ أن غضبَ من نفسهِ إذ ربما كان بامكان هذا

الرجل مساعدتَه .

ولسببٍ ما ، أخذ أندرو يوجهُ غضبَهُ نحو كريستين . وبينما كانا عائدين إلى منزلهما في نهايةِ السهرة لزم الصمت . ولكنَّ كريستين علقت بسرور : « لقد أمضينا وقتاً ممتعاً . أليس كذلك يا حبيبي ؟ »

فأجابها بمرارة : « أوه ، وقتاً مدهشاً ! »

وفي اليوم التالي ، لم يتغيّر سلوكُهُ .

وفي المساء أرسلت السيدة فوغهان بعض الكتبِ والزهور لكريستين . ولكن هذه البادرة الطيبة أدّتْ إلى خلاف إذ قالت كريستين : « أنظر يا عزيزي ! أليستْ السيدة فوغهان لطيفة ؟ »

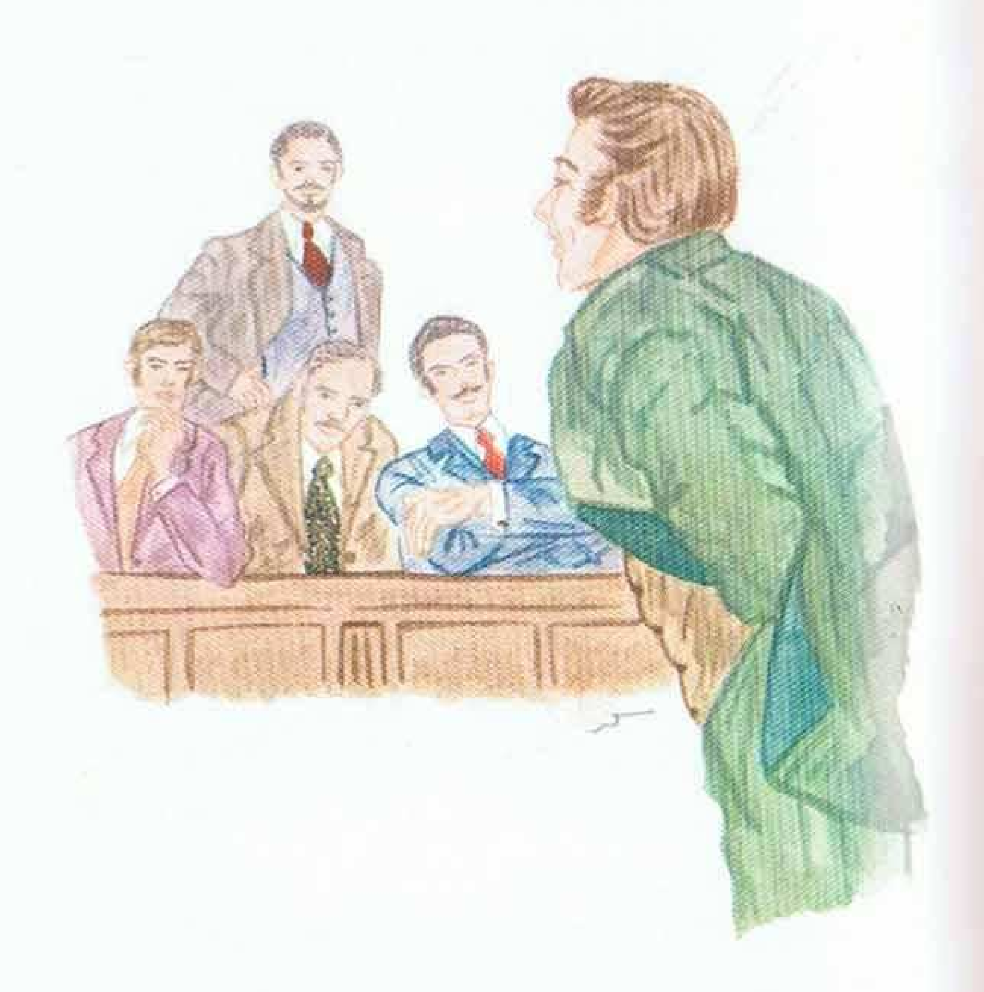
فأجابها أندرو ببرود : « لطيفة جداً ! كتبٌ وأزهارٌ من السيدةِ الثريّة ، أعتقد أنكِ بحاجة إلى هذه الأشياء لتساعدَكِ على العيشِ معي ! فأنا مملٌ بالنسبة لك ! إذ لستُ واحداً من هؤلاءِ الأذكياء الذين التقيتِ بهم أمس ! لستُ سوى طبيب ! »

— « أنــدرو ! »

— « انها الحقيقة ، أليس كذلك ؟ لقد كان باستطاعتي أن أدرك ذلك من تصرفاتك خلال العشاء . لقد مللْتِ مني ! »

— « كيف تقولُ شيئاً كهذا ؟ »

لكن أندرو انطلق خارجاً من الغرفة وهو يقفلُ البابَ خلفَهُ بعنف ، وظل يمشي ربع ساعة في المطبخ ذهاباً وإياباً ، ثم هُرِعَ فجـأة عائداً إلى كريستين وأخذها بين ذراعيهِ وهو



« أوين » مع أعضاء هيئة المناجم والفحم ٤

يصرخ : « أوه يا كريس ! انني آسفٌ يا حبيبتي ، سامحيني ، فأنا غيورٌ غبي . إنـني أحبُكِ من كلِ قلبي . »

الفصل الرابع عشر

ولّى فصلُ الشتاء واستعادَ أندرو شغَفَهُ باجراءِ التجارب على غبارِ الفحم التي كان قد بدأها باجراء فحصٍ طبي لكلّ عاملِ منجمٍ على لائحتِهِ ، وساعدتهُ كريستين بتدوين الملاحظات له فدُهشَ بمعلوماتِها .

وبما أن ساعات النهارِ طالت ، بدأت كريستين دونَ أن تخبر أندرو بانشاءِ حَديقة بمساعدة عاملِ منجمٍ عجوز . وفي أحدِ الايام وبينما كان أندرو يعبرُ الجسرَ المتهدم فاجأهُمـا وهما يعملانِ بالقربِ من الجدول .

فصرخ من على الجسر : « هاي ، ماذا تفعلان ؟ »

وأجابتهُ كريستين : « انتظر وسترى ! »

لقد زرعتْ حديقةً صغيرة مرتبة في احدى زوايا الارضِ الوعرة . وبعد اسابيع أمسكت بيد أندرو وقادتهُ بفخرٍ لتريه أولى زهراتِها .

وفي أواخرِ مارس ، فاجأهم « دني » بزيارةٍ فَسُرّوا كثيراً برؤيته .

وما إن جلسوا للغداء حتّى قال « دني » : « لقد مات بايج .

أجل ، تُوفي المسكين منذ شهر ، والآنسة بايج ستقترنُ بصديقِكَ ريس مدير البنك » .

وساد صمتٌ قصير حين فكروا بأدوارد بايج .

وأخيراً سأل أندرو : « وأنت ، كيف حالُك يا فيليب ؟ »

فابتسمَ وقال : « اوه ، لا اعلم . انني لستُ راضياً ، فدراينفي تبدو موحشة منذ سفرِكُمْ وانني أفكرُ بالسفرِ إلى الخارج لبعضِ الوقت لعلّي أجدُ منصباً جديداً . »

وهكذا أمضوا فترة بعد الظهر يتحادثون ، ثم لحق فيليب بالقطار العائد إلى دراينفي . وعندها أدركَ « أندرو » كم افتقدَ زمالةَ فيليب ، ففي دراينفي كانت لهما نفس الأفكار حول مهنةِ الطب كما عملا لهدف واحد ، على عكس أطباء أبيرالو الذينَ عملوا دون أيّ هَدَفٍ على الإطلاق . كان ايركهارت قد أصبح عجوزاً وكان قد فَقَدَ اهتمامَهُ بعمله . وكان ميدلي اصمّ لا يسمع ما يقولُهُ مرضاه ، ولكي يتلافى محاذير إعطائهم علاجاً غيرَ مناسبٍ كان يعطيهم دائماً زجاجةً من دواء غير مؤذ . أما أوكسبورو ، فلقد كان طبيباً فاشلاً . وكانت ثقتُهُ بنفسهِ ضعيفة إلى درجة انه قبلَ أن يبدأ بمعالجةِ أبسط الحالات كان يجثو بجانبِ سرير المريض ويُصلي . وكانت الصداقة بين الأطباء مفقودة تماماً .

من أجل ذلك رغبَ أندرو في تحسين العلاقات وفي تأسيس جهازٍ جديد يتمكنُ الأطباء من العمل فيه بروح ودية ، كما رغبَ في انهاء الاتفاقيةِ المُجحفةِ التي تُلزمُ الاطباء بدفع جزء

من رواتبهم للدكتور لويلن . وبعدَ اسبوع أو اثنـين التقى بـ « كون بولاند » فقد اكتشف أندرو ثقباً في أحد أسنانه فذهب لمقابلةِ طبيب أسنان الجمعية . وبينما كان سائراً في الممر المؤدي إلى منزل بولاند ، سمع صوت طَرْقٍ ورأى عَبْرَ باب التخشيبة المفتوح رجلاً ضخماً يُصلحُ عربةً بمطرقة . وفي تلك اللحظة تنبهَ الرجلُ لوجودِهِ ، فرحّب به وسأله عمّا يريد .

— « أريدُ أن أُرتبَ موعداً مع طبيب الأسنان ، أنا الدكتور مانسون » .

فأجابَهُ بولاند ضاحكاً : « أنا طبيبُ الأسنان ! كنت أُصلحُ عربتي القديمة . » ثم ارتدى معطفَهُ وأضاف : « تعالَ معي إلى العيادة حيثُ سأهتمُ بسنك . »

وفي العيادة المتسخة كالكاراج حشا « كون » الثقبَ دون أن يسكتَ لحظة ومن غير أن يغسلَ يديه. وإثر انتهائه من حشو الثقب ألقى بأدواتهِ في طست ماء ودعا أندرو لشرب الشاي قائلاً : « أريدُ أن أُعرفك على عائلتي . »

كانت زوجة بولاند وأولادُهُ الخمسة ، وكانت كبراهُمْ ماري، يشربون الشاي عندما دخل كون وأندرو غرفة الجلوس .

وبعدَ أن تمَّ التعارف قالت السيدة بولاند : « لقدْ رغبتُ في زيارة السيدة مانسون ، يا دكتور ، ولكنني كنتُ منشغلة جـداً . »

فانفجر كون ضاحكاً : « منشغلة ! في الحقيقة انها لا تملكُ فستاناً لائقاً لتلبسَهُ ، هذا ما قصدَتْهُ ! » ثم تلفتَ نحو أندرو

وأضاف : « نحن فقراء يا مانسون . نحصلُ على القليلِ من المال ، وبالطبع ، يتوجب علينا أن نعطي بعضهُ للزعيم الكبير . »

— « من ؟ من هو الزعيم الكبير ؟ »

— « انه لوِيلن بالطبع ، فهو يأخُذُ المالَ مني كما يأخذُه منك ! »

— « ولكن لماذا ؟ فأنت طبيبُ أسنان ولستَ طبيب صحة. »

— « أوه ، انهُ يقومُ بفحص مرضايَ أحياناً . »

فقال أندرو بسرعة : « إسمع يا بولاند ، ان هذه الاتفاقية غير عادلة ! لماذا لا نرفضُ الدفع ؟ »

— « مـــاذا ؟ »

فاقترح أندرو : « لنتّحدْ ولننقضْ هذه الاتفاقية مع لويلن . ويمكننا أن نطلبَ من أطباء آخرين الانضمام إلينا . »

ومدَّ « كون » يدهُ قائلاً : « حسناً سنعمل معاً . »

وانطلق أندرو إلى كريستين وقال لها : « كريس ! لقد تعرفتُ إلى رجلٍ غايةٍ في اللطف ، إلى طبيب أسنان . إسمعي يا حبيبتي ، سنخوضُ معركةً مع لويلن ! »

وفي اليومِ التالي بحثَ أندرو الخطة مع أووين الذي تعاطفَ معهُ ثم أقنعَ ايركهارت وأوكسبورو وميدلي بالمجيء إلى منزله تلك الليلة . وبعد أن أنهى الترتيبات قرر فجأةً أن يُنذر لويلن فحدّثه في المستشفى قائلاً : « إسمع يا دكتور . انه من الإنصاف أن أخبرَكَ أننا نحن الأطباء قد قررنا أن نعترضَ على منحِكَ جزءاً من رواتبنا وسنجتمعُ الليلةَ في منزلي لمناقشةِ القضية . »

بدأ الاجتماع في التاسعة ليلاً واستهل أندرو الحديث :

« أيها السادة! ان جهازنا هنا فاسد . فنحن جميعاً أعضاء في نفسِ الجمعيةِ الطبية وبدلاً من أن نتعاون معاً فاننا نتشاجر دائماً . يجبُ أن نغيّرَ اسلوبنا ، ونضعَ طريقةً تؤدي إلى مساعدتنا جميعاً . » وتوقفَ برهةً ليلاحظَ انطباعاتهم ثم أضاف :

« كذلك يجبُ أن نرفُضَ دفعَ المال للدكتور لويلن لأن ذلك غير عادل . ولقد بحثتُ الموضوعَ مع أووين الذي أوضح أنه ليس لدى الجمعية أي قانون يوجبُ ذلك . . كل ما هنالك اتفاق بيننا وبين لويلن ، تعويضاً عن مساعدتنا في فحص المرضى عند حاجتنا إلى مشورته . » مع العلم أن من واجب لويلن ، أن يتولى هذه المهمة من غير تعويض . فراتبه مخصّص لتغطية أعمالٍ من هذا النوع . فلماذا ندفعُ له نحن أيضاً ؟ »

فقال «كون» : « انني أوافق ! إنني أوافق ! »

وهنا تكلم أوكسبورو : « ولكن تذكروا أن الدكتور لويلن مستعدٌ دائماً لتولي قضايانا العسيرة . »

فنظر إليه أندرو بازدراء وقال : « وهل ترغبُ في أن يتولى عنك قضاياك الصعبة ؟ »

فأجاب أوكسبورو : « طبعاً ، ومن لا يرغب ؟ »

فقال آندرو : « أنا » .

واستمر النقاش حوالى الساعة ، كرر خلاله أندرو قوله :

« يجبُ أن نرفضَ الدفع . إن لويلن يعلمُ أننا ننوي الرفض .

فلقد أخبرتُهُ بذلك بعد الظهر . »

فصرخ الأطباء الثلاثة : « ماذا ؟ هل أخبرت لويلن ؟ »

— « طبعاً أخبرتُهُ ! فسيعلمُ في وقتٍ ما . وإذا تعاونا معاً بحزم تأكدنا من الفوز . »

فصرخ ايركهارت : « لستَ محقاً في ذلك! لاسيّما وأن له نفوذاً واسعاً وقد يؤدي ذلك إلى صرفنا من الخدمة . » ثم نهض محتجاً وخرج فتبعهُ ميدلي وأكسبورو وبقيَ كون وأندرو بمفردهما في الغرفة .

وفي الصباح التالي ، أصيبَ أندرو بصداعٍ شديد . وبينما كان ذاهباً لمعاينةِ أحد المرضى مرَّ بالدكتور لويلن الذي حياهُ بابتسامة .

الفصل الخامس عشر

شعر أندرو بتعاسة كبيرة . وصباح يوم الأحد وبينما كان مستلقياً في السرير ، قال فجأة لكريستين : « انني لا أهتمُ للمال ولكن مجردَ فكرة الدفع تزعجني . لماذا لا أقوى على نسيانها ؟ لماذا لا أحب لويلن ؟ »

— « أظنُّ انك تحسدهُ » .

فصرخ أندرو : « ماذا ؟ ولمَ أحسده ؟ »

— « لأنه ناجحٌ في عمله . »

فقفزَ من سريره وأخذ يتمشى في الغرفة وقال : « يا إلهي ! الآن عرفتُ حقيقة ظنك بي ! »

— « حسناً يا عزيزي ، أظن أنك لاتنوي البقاء هنا إلى الأبد ، أليس كذلك؟ وإذا حصلتَ على شهادةٍ جيدة فانها ستساعدك في الحصول على منصبٍ أفضل . »

فاستدار أندرو وقال بتردد : « أنت على حق يا كريس ! ولكن ، لا . هذا غير معقول ! إذ ينبغي للحصول على شهادة أن أتعلمَ بعض اللغات الأجنبية » .

فركضت كريستين إليه وقبلتهُ قائلة : « ستحتاجُ إلى الإلمام باللغات فقط ، ويمكنني أن أساعدَك . تذكر أن زوجتك كانت ذاتَ يومٍ مدرّسة ! »

وهكذا أمضيا يوماً كاملاً وهما يضعان الخطة بحماس . وفي ذلك المساء أعطته كريستين الدرس الأول ، وأخذت تساعده كل مساء . أما هو فكان يدرسُ كل ليلة حتى ساعةٍ متأخرة فهزُلَ جسمه ونحُلَ وجهه .

ومعَ إطلالة شهرِ آب أصبحَ أندرو جاهزاً للقيامِ ببعض الممارسة العملية في الطب مما أثارَ مشكلةً أخرى ، وهي كيف سيتمكن من الحصول على الخبرة ؟ وكان رأيُ كريستين أن يتصلَ بكاليز الذي كان يَشْغَلُ منصباً هاماً في جامعة كارديف . وما إن كتبَ له أندرو حتى وافق كاليز على السماحِ له بالعملِ في الجامعة .

وقال آندرو : « لقد كنتِ على حق يا كريس ! فجميلٌ

أن يكونَ للمرء أصدقاء . أما أنا فلم أكنْ راغباً في الذهاب إلى منزلِ آل فوغهان ذاك المساء حيث التقينا كاليز . »

واشترى أندرو دراجةً بخارية قديمة . وخلال ساعات الفراغ بعد الظهر كان يمتطي دراجتهُ ويقودها مسافة ثلاثين ميلاً إلى كارديف حيثُ كان يعمل في الجامعة ساعةً ثم يعود .

وأخيراً ، وبعدما أنهى كل المواضيع التي قد تطرح عليه في الامتحان ، ذهب بمفرده إلى لندن لاجراء الامتحان من أجلِ الحصول على الشهادة. وعندما جلس للامتحان اضطرب وكتبَ الكثيرَ دون أن ينظر إلى الساعة .

وفي اليوم التالي تولى طبيبان امتحانَهُ في التمارين العملية في الطب. وإذا به يضطربُ أكثر مما اضطربَ في الامتحانِ الخطي ، وكان الفاحصُ الأول الدكتور غادسبي الذي نظرَ إليه بفتور وطرحَ عليه ستةَ أسئلة ، أجاب أندرو على خمسة منها إجابةً صحيحة لكنه عجزَ عن الإجابة على السادس. وكمَنْ عيِلَ صبرُهُ ، كرَّر غادسبي السؤال عدة مرات ، ثم حوَّل أندرو إلى الفاحصِ الثاني السِّير روبرت أبي .

فعبرَ أندرو الغرفة بوجه شاحب . لقد كان متأكداً من أنهُ سيرسبُ ولكنه ما إن رفع نظرَهُ حتى رأى روبرت أبي يبتسمُ له .

وسألهُ أبي : « ما القضية ؟ »

فقال بتردد : « لا شيء يا سيدي ، انني لا أعتقدُ أن الدكتور غادسبي كان راضياً عن أجوبتي . هذا كل شيء . »

فقال أبي : « لا تقلق . »

فبالرغم من أن « أبي » كان واحداً من أشهر أطباء أوروبا ، فانه تذكر كفاحَه الماضي ، مما جعلَه يشعرُ بعطفٍ كبير على أنـدرو .

ثم أخذ يسأله بطريقة ودية ، مبتدئاً بسؤالٍ سهل . وبالتدريج أخذت الأسئلة تزداد صعوبة ، ولكنّ أندرو تمكن من الإجابة الصحيحة بعدَ أن شجعَه أسلوبُ « أبي » المتعاطف .

وما لبث أن سأله « أبي » عن حالةٍ تصيب الجسم وتدعى « الأنوريسما » قائلاً : « هل تعرفُ تاريخَ الأنوريسما ؟ »

فأجاب أندرو : « يُفترض أن يكون باري مكتشفَ هذه الحـالة . »

وبدت علامات التعجب على وجه « أبي » الذي قال : « لماذا تقولُ يُفترض يا دكتور مانسون ؟ إذ أنه هو الذي اكتشف الأنوريسما بالفعل . »

فامتقع أندرو وقال : « حسناً يا سيدي ، الكتبُ الطبية تؤكد ذلك ، غير أني أظنّها مخطئة ، فبينما كنتُ أحضرُ للشهادة قرأتُ شرحاً مطولاً عن الأنوريسما في كتاب وُضع قبل ولادة باري بألف وثلاثمائة سنة . »

عندئذ نظر « أبي » إلى أندرو بطريقة غريبة وقال : « دكتور مانسون ، انك أولُ شخصٍ تخبرُني ، في امتحانٍ ، شيئاً جديداً كنت أجهلهُ . اني أهنئك . »

ثم أردف قائلاً : « الآن أجبني عن سؤال أخير . ما هي برأيك أهم قاعدة يتعين على الطبيب العمل بها ؟ »

ففكر أندرو ملياً وقال : « أظن أنها التي تقول : لا تؤمن بشيء قبل إثباتهِ . »

وعند الرابعة بعد الظهر جاء « أبي » مبتسماً وأبلغهُ بنجاحهِ ، فما كان منه إلا أن أبرق لكريستين يزفُّ إليها النبأ العظيم .

الفصل السادس عشر

وصلَ القطار إلى أبيرالو عند منتصفِ الليلِ تقريباً . وبينما كان أندرو متجهاً إلى منزلهِ لحق به فرانك ديفيس أحدُ عمال المناجم وناداه قائلاً : « يا دكتور ، انك مطلوب ! »

فسأله أندرو : « ما الخطب ؟ »

— « وقع حادثٌ في المنجم ، وهناك رجل شبهُ مدفونٍ تحت الفحم . انه سام بيفان أحد مرضاك . أسرعْ أيها الطبيب . »

فقال أندرو : « سأحتاجُ إلى معدّاتي . أسرع إلى منزلي واحضر لي حقيبتي وسأذهبُ أنا مباشرة إلى المنجم . »

وصلَ أندرو المنجم بعد أربع دقائق حيثُ كان بانتظارهِ المدير وثلاثة رجال . وبادره المدير قائلاً : « انه حادثٌ مريع . لم يُقتل أحد ، ولكن أحد الرجالِ قد علقَ وليسَ باستطاعتنا تحريكهُ ! »

في تلك الأثناء هُرِعَ دايفيس إليهم حاملاً حقيبة المعدات . وبدون تلكّؤ بدأت المجموعة الصغيرة بالنزول إلى المنجم العميق

الخطر . وكان الممر المؤدي إليه ضيقاً لدرجة اضطرت أندرو وصحبه إلى الزحف على أيديهم وأرجلهم حوالى نصف ميل .

وأمر المدير الأشخاص الثلاثة الذين كانوا يحاولون إنقاذ بيفان بإفساح المجال للطبيب . فانسحبوا بينما تقدمَ أندرو زاحفاً.

وعلى ضوء مصباح المدير ، فحص أندرو الرجلَ . كان جسمهُ حراً بأكمله باستثناء ذراعهِ اليسرى التي كانت دفينة تحت ركامٍ ثقيل من الفحم . وعلى الفور ، رأى أنـدرو أن الوسيلة الوحيدة لتحرير بيفان هي بترُ ذراعه .

ويبدو أن بيفان قرأ قرار أندرو على وجهه فقال له بشجاعة : « هيا يا دكتور ، إقطعها فأنا لا أمانع ! »

وخلعَ أندرو معطفه وهو راكعُ على ركبتيه ووضـع المعطف تحت رأسِ بيفان . وكم كان ذُعرُه كبيراً عندما فتح حقيبته ووجد أن الزجاجة التي احتاج إليها كانت مكسورة ، وإذن فلن يتمكنَ من تخدير بيفان . وبسرعة تناول زجاجة أخرى وأعطى بيفان شيئاً منها ليخفف آلامه .

وقال : « أغمضْ عينيك يا سام ! »

وما إن بدأت السكين تقطع لحم بيفان حتى صرخ صرخـة مدوية . وعندما بلَغَت السكينُ العظمَ أغمي عليه .

لم يستطعْ أندرو أن يعرف ماذا كان يفعل في هذه الهوّة العميقة تحت الأرض ، إذْ لم يسبق له أن عمل في مثل هذه الظروف الصعبة . كما أنه لن يتمكن من قطع العظم . ومما زاد الأمر تعقيداً أن المنجم كان مهدداً بالانهيار في أية لحظة .

وأخيراً ، وضع ضمادةً من قماش رقيق على الجرح الذي كان ينزفُ ونهض قائلاً : « اخرجوه . وغطّوه جيّداً حتى يدفـأ . »

فحملوه بتأنٍّ إلى الخارج . وما إن تقدموا مسافة ستين ياردة حتى سمعوا هديراً صادراً عن انهيار الفحم .

الفصل السابع عشر

أدى إنقاذ سام بيفان إلى زيادة شعبية أندرو . فإذا بأناس لم يلاحظهم قبلاً يبتسمون له وإذا بالبطاقات الطبية تنهال عليه . هذا بالإضافة لما ساهمت به شهادة أندرو الجديدة في تحسين مركزه في البلدة .

ولم يعلم دني الذي كان في الخارج بأمر الشهادة . ولكن فريدي هامسون كتب لأندرو يهنئه .

مرت الأسابيع التالية بسعادة . وفي الليلة التي سبقت عيد الميلاد عاد أندرو من العيادة بشعور رائع بالطمأنينة والارتياح . وما إن دخل البيت حتى رأى أن كريستين تشاركه الشعور نفسه .

وقالت وهي تمدّ له يدها : « اغمض عينيك وتعالَ معي ! »

ثم قادتهُ إلى المطبخ حيث وجد على الطاولة عدة رزمٍ مع كلٍ منها بطاقة صغيرة . وسرعان ما أدرك أنها هدايا من مرضاه. فهتفت كريستين : « أنظر يا أندرو! دجاجة وبطّتان

وكعكة هائلة ، وزجاجة نبيذ . أليس هذا لطيفاً منهم ؟ »

وعجز أندرو عن الكلام ثم أخذ يتمشى ذهاباً وإياباً في المطبخ وهو يقول : « هكذا يجب أن يدفعَ الفقراء لأطبائهم دون نقودٍ أو فواتير ! فإذا كان المريضُ فقيراً ، فليعطِ الطبيبَ شيئاً من إنتاجه . »

كان اليومُ التالي ، يومُ عيد الميلاد ، مشرقاً وجميلاً .

وبعد تناول الإفطار خرج أندرو لعيادة مرضاه . كانت كل المنازل منشغلةً بتحضير طعامِ الغداء . وقد حياه الناس في كل مكان قائلين : « ميلاد سعيد يا دكتور ! »

وكان قد عاد إليه جميعُ مرضاه باستثناء « توم إيفانز » و « شنكن » الذي لم يرغب أندرو في عودته . وفجأة ، قرر أندرو أن يزور إيفانز ليهنئه بالميلاد . وبعد أن قرع الجرس دخلَ مباشرةً إلى المطبخ . وصُدِمَ عندما وجده شبهَ فارغ وإيفانز جالساً على كرسي مكسور بجانب نارٍ خافتة ، وعلى ركبتيه ابنته الصغيرة البالغة من العمر أربع سنوات .

وفجأة استدار إيفانز . وعندما رأى أندرو علت وجهه تعابير خجلٍ وغضب . فأدرك أندرو للحال أن إيفانز خجل أن يراه طبيبهُ الذي لم يعمل بنصيحتهِ بهذه الحالة من الفقر . وفي هذه اللحظة بالذات دخلت السيدة إيفانز المطبخ .

عندئذ دعاهما أندرو إلى تناول طعام الميلاد في منزله . فغضب إيفانز وقال : « لَسْنا بحاجة لمساعدة أحد ! »

— « ماذا تعني ؟ اني أدعوك كصديق . » ثم التفت إلى

السيدة إيفانز قائلاً : « أقنعيه أنت يا سيدة إيفانز . سأكون حزيناً إذا لم تحضروا . نحن بانتظاركم عند الواحدة والنصف . »

وقبلَ أن يتمكنا من الإجابة انصرف أندرو .

وصلت عائلة إيفانز إلى بيت أندرو ولكنها كانت مضطربة بعض الشيء . وبعد الغداء ، قادت كريستين السيدة إيفانز والطفلة إلى غُرفة الجلوس بينما بقي أندرو وإيفانز جالسين معاً بصمت حتى قال أندرو : « انني آسفٌ لما حلَّ بذراعك يا توم . »

— « لستَ آسفاً بقدر أسفي . »

وساد صمتٌ قصير ثم أضاف أندرو قائلاً : « هل تسمح لي بالتوسط لدى السيد فوغهان بشأنك؟ إني متأكد من أنه سيجد لك عملاً أسهل . »

ولم يُجبْ إيفانز ولكن الدموع انهمرت من عينيه ..

وعند الثالثة والنصف انصرفت عائلة إيفانز ودخلت كريستين مع أندرو غرفة الجلوس .

فبادرها أندرو قائلاً : « هل تعلمين يا كريستين أن هذا المسكين فقد ذراعه بسبب غلطةِ أوكسبورو ؟ وهذا الأخير هو الملُوم ، إذ أن إيفانز عندما تركني وذهب إلى أوكسبورو أعطاه علاجاً غير مناسب . انه جاهلٌ لا يعرف شيئاً ! يا إلهي ! يجب أن يكون هناك قانون ... »

ابتسمت له كريستين وهي جالسة في كرسيها وقالت : «كفى حديثاً عن العمل فانني أريدُ أن أخبرك بشيء هام . إقترِبْ مني ! »

ففعل قائلاً : « حسناً ، ما هو النبأ السعيد ؟ »

فابتسمت وقالت : « سأرزق بطفل يا حبيبي . »

— « طفل ؟ حقاً ؟ تعنين ... »

— « أجل ، كنت أحاول أن أخبرك بذلك طيلة اليوم . »

الفصل الثامن عشر

عاد الربيع وازدانت الحديقة بالزهور .

وكان أندرو شديد الانفعال لمجرد التفكير بأنه سيصبح أباً حتى أنه قرر فجأة أن يطلب من الدكتور لويلن أن يتولى توليد زوجته .

وبدا لويلن سعيداً عندما هتف له أندرو وقال : « يسرني أن أساعدك يا أندرو ، وانني أعدك بأن أبذل كل جهدي . ولكن ، في هذه الأثناء أرى أنه من المستحسن أن تمنح زوجتك عطلة . »

وعملاً بنصيحة لويلن ذهبت كريستين إلى إحدى عماتها . وافتقدها أندرو أكثر مما كان يظن . لقد أمضى ليلة أو ليلتين مع آل بولاند وآل فوغهان ، غير أنه أمضى معظم الأمسيات وهو يعمل في اختباراته الخاصة بغبار الفحم . وخلال ذلك توصل إلى اكتشاف أثاره كثيراً .

وأخيراً عادت كريستين في نهاية حزيران ، ولم تكد تنظر

إلى وجهه حتى تغيرت ملامحها وقالت بقلق : « انك تبدو متعباً يا حبيبي ! »

فحدثها أندرو عن تجاربه ، فسألته : « كم يستغرق هذا العمل الخاص ؟ »

— « قد يستغرق سنة ، وقد يستغرق خمس سنوات ! »

— « إذن يجب عليك أن تضع نظاماً يتيح لك العمل في ساعات معينة بدلاً من الإرهاق والسهر الطويل . »

— « ولكنني لا أشكو من شيء ! »

وفي أواخر تموز أصبح أندرو منشغلاً بصورة خاصة بتجاربه . وبعد ظهر أحد الأيام ، وبينما كان يسير في الطريق وهو مُرْهَق جداً شاهد سيارة الدكتور لويلن خارج بوابة منزله فظن أن الطفلَ قد وُلدَ قبل موعده ، وأسرع إلى البيت واقتحمه وهو يقول بلهفة : « مرحباً يا لويلن . لم أكنْ أتوقع أن أراك هنا باكراً . »

فأجابه لويلن : « أما أنا فكنت أبحثُ عنك منذ الصباح . »

— « هل من مشكلة ؟ »

فنظر لويلن من النافذة باتجاه الجسر القديم في الحديقة وقال بهدوء : « هذا الصباح ، وبينما كانت زوجتك تسيرُ على الجسر ، تحطمت بعض الأخشاب العفنة ، فوقعت . انها على ما يرام . ولكني أخشى أن يكونَ الطفل ... »

وفهم أندرو القضية قبل أن ينهي لويلن حديثَه ، وأخذ ينْشج . فحاول لويلن أن يواسيه وقال : « لا تلومَنَّ أحداً .



حفلة عشاء في منزل « فريدي »   ٥

لقد كان قضاءً وقدراً . والآن اصعد لترى زوجتك . »

فصعدَ أندرو وهو لا يزالُ مطرقاً . وتوقف خارجَ غرفة النوم وهو يتنفسُ بصعوبة ، ثم دخل .

الفصل التاسع عشر

ما إن أطلت سنة ١٩٢٧ حتى كان الدكتور مانسون قد اكتسبَ شهرةً متفاوتة. لم يكن عدد زبائنه كثيراً ، ولكن ثقة مرضاه به كانت كبيرة . ونادراً ما كان يصفُ أدويةً ، غير أنه عندما كان يفعل كان يصف أحدثها وأفضلها. وباستعماله الأدوية الحديثة حالَ مانسون مرةً دونَ انتشارِ مرضٍ خطيرٍ في منطقته .

كان على لجنة الجمعية الطبية أن تشعر بالامتنان لمانسون ، ولكن عدداً قليلاً من أعضائها ، وعلى رأسهم شنكن ، كان يحسده على نجاحه . وأحياناً كان أندرو يتساءل عن سبب بقائه وكريستين في أبيرالو بعد وفاة طفلهما . والواقع أن تجاربه على غبار الفحم كانت السبب الوحيد لبقائه .

وتجمَّع لديه الآن كثيرٌ من المعلومات الهامة عن تأثير غبار الفحم على رئات عمال المناجم . ولكي يقيمَ الدليل على صحة آرائه ، قرر إجراء بعض التجارب على حيوانات صغيرة . وهنا بدأت متاعبه الحقيقية .

فعندما عاد من عمله وجد كريستين قلقة فسألها عن السبب

فقالت : « لقد كان عندي اليوم بعض الزائرين . »

— « ومن كانوا ؟ »

— « خمسة من أعضاء اللجنة، بمن فيهم شنكن . لقد سمعوا عن تجاربك على الحيوانات فاقتحموا غرفتك ، وعندما شاهدوا الحيوانات ، صرخ أحدهم : «يا للمخلوقات المسكينة ! » فحاولت أن أخبرَهُم أن الحيوانات لم تتعذّب ، ولكنهم أصرّوا على أخذ الحيوانات . »

فصرخ أندرو : « ماذا ! » ثم فكر هنيهة ، ودخل الرواق ليجري اتصالاً هاتفياً . وما إن وصل إليه حتى رن جرس التلفون فأجاب أندرو بغضب ولكنه سرعان ما تغيّرت لهجته . إذ أن المتحدث كان أووين، وقد استهجن العمل ووعد بالمجيء في الحـــال .

وحين حضر أووين سأله : « هل استحصلتَ على ترخيص؟ »

فنظر إليه أندرو بدهشة وقال : « ترخيص بماذا ؟ »

— « ترخيص بإجراء التجارب على الحيوانات . »

— «كلا ! بحق السماء، أنا لم أفكر بذلك قط ! »

— « أخشى أن تقع متاعب ، فبعض أعضاء اللجنة يضمرون لك الشر ، ولكن لا تقلق ففي النهاية ستجري الأمور كما يجب. »

وفي الليلة التالية ، تسلم أندرو رسالة يُؤمَرُ فيها بالمثول أمام اللجنة بعد اسبوع .

وبعد ظهر الأحد ، مَثُل أندرو أمام اللجنة . وبدأت الجلسة بخطابٍ تعنيف من شنكن الذي قال بصوت عالٍ إن

أندرو خرقَ القانون بإجراءِ تجاربه بدون ترخيص ، ويجب أن يُبلَّغ عنه لهذه الجريمة .

وهنا قاطعه أووين قائلاً : « يجب أن أنبه اللجنةَ إلى أن الإبلاغ عن الدكتور مانسون سيقود اللجنةَ كلَّها إلى المتاعب . »

فسأله شنكن : « ماذا تقصد ؟ »

عندئذ أوضح أووين : « بما أننا نستخدم الدكتور مانسون ، فاننا مسؤولّون عن أفعاله أمام القانون . »

وعلت بعض الأصوات : « إن أووين على حق ! لا نريدُ أية متاعب ! »

فصرخ شنكن : « إذاً ، لندعِ الترخيص ... جانباً ! فهناك العديد من الشكاوى ضده . »

وهنا صرخَ أحدُ الجالسين في المؤخرة : « أجل ! أجل ! تذكروا فترات بعد الظهر التي قضاها يتنزه على دراجته الآلية ! »

وقال آخر : « انه لا يصف الأدوية ! »

فصرخ شنكن : « كل هذه الشكاوى تثبت أن الدكتور مانسون قصَّر في خدمتنا . يجب أن يستقيل الدكتور مانسون . »

بعد ذلك قال أووين وهو يستدير نحو أندرو : « ربما سمحتَ الآن للدكتور مانسون بالكلام . »

وساد صمت إذ أن أندرو بقي ساكناً لحظةً . فالموقف كان أسوأ مما توقّعه . ثم نهض وقال : « ما أقدمتُ عليه لم يكنْ وحشياً . ثم لماذا تأخذون معكم فئراناً وطيوراً إلى المناجم ؟ لتتحققوا من وجود الغاز ! وعندما يقضي الغاز على هذه الفئران

والطيور ، هل تعتبرون ذلك وحشياً ؟ كلا بالطبع ! لأنكم تعلمونَ أن هذه التجاربَ على الحيوانات تنقذ حياة الإنسان ، حياتكم أنتم . حسناً ، إن هذا ما كنت أحاول أن أفعله من أجلكم ! فقضيتُ ثلاث سنوات في إجراء التجارب على الأمراض التي تصابون بها من الغبار في المناجم ، ولقد توصلت إلى اكتشاف يضمن لكم صحة جيدة ويؤدي إلى نتيجة أفضل من تلك التي يُعطيها الدواء ! إنكم لا تصدقونني ، ولكنّ هذه الوثيقة تدلكم على أني لا أكذب . » وتناول رسالة من جيبه وقدمها لأووين . كانت من جامعة في سكوتلندة ، تعرض عليه فيها شهادة طبية أخرى تقديراً منها لاكتشافاته الهامة حول غبار الفحم . وقرأ أووين الرسالة . وأطلق ابتسامة تدل على الارتياح . ثم عرضها على أعضاء اللجنة . وبعد إبداء المزيد من الملاحظات قال : « نود لو تتركنا الآن يا دكتور . »

وعندما رجع أندرو إلى غرفة اللجنة ، بدا الجميع أكثر وداً نحوه باستثناء شنكن . ثم نهض اووين وقال : « أودُّ أن أخبرك بكل سرور أن اللجنة قررت أن تطلب منك البقاء . »

لقد نجح ! وانتظرت اللجنة أن يعبر عن ارتياحه لكنه قال : « شكراً لك يا سيد اووين . انني سعيد لأن اللجنة ترغب في بقائي ولكنني آسف لأنني لن أتمكن من ذلك . وانني أعطيكم مهلة شهر ابتداء من الآن . » وخرج من الغرفة .

وساد صمت ثم قال شنكن : « لن نخسر شيئاً ! »

عندئذ فقد اووين أعصابه وصرخ قائلاً : « إخرس يا شنكن . لقد خسرنا أفضل رجل عَمِلَ معنا حتى الآن ! »

الفصل العشرون

استيقظ أندرو عند منتصف الليل وهو يصرخ : « هل أنا مجنون يا كريس ؟ »

فهدأته في ظلمة الليل قائلة : « كلا يا حبيبي . فنحن لا ننوي البقاء في ويلز بقية حياتنا . »

– « ولكن يا كريس ، نحن لا نستطيع شراء عيادة الآن . ويجدر بنا أن نَدَّخرَ بعضَ المال قبل أن نرحل من هذا المكان . »

فهدّأت كريستين من روعه ، فاطمأنّ بعض الشيء .

ومع اقتراب موعد السفر ، أصبح الجميع راغباً في بقائه . فبعد مرور اسبوع على الجلسة زاره في منزله اووين واثنان أو ثلاثة من أعضاء اللجنة ، وطلبوا منه أن يغيِّر رأيهُ ، لكنه رفض .

ونشرت بعض الصحف البريطانية والأميركية مقالات عن اكتشافاته حول غبار الفحم. وما هي إلا أيام حتى تسلم أندرو رسالةً من كاليز ، الذي طلب منه أن يزوره في ذلك الاسبوع . لكن أندرو أضاعَ الرسالة ونسي أن يجيب عليها ، إذ أن رسالة أخرى أثارته أكثر من تلك .

وقال لكريستين: « هذه تُسعدني ! انها من شخصٍ اميركي

يدعى ستيلمان ، يدير مستشفى في أميركا حيث يعالج الناس من أمراض الرئة . ورغم أن الجسم الطبّي لا يعترف به كطبيب ، فإنه رجل طيب سأخبرك عنه في وقت آخر . »

وعلى الفور جلس يكتب جواباً لستيلمان .

ورغم أنه أهمل الإجابة على رسالة كاليز ، فانه تسلم منه رسالة ثانية يخبره فيها أن هيئة الفحم والمناجم قررت تعيينه ضابطاً طبياً لديها .

ولما قرأت كريستين الرسالة قالت : « ألم أقل لك أن شيئاً كهذا سيحصل ؟ أليس هذا رائعاً ؟ »

وعلى الفور اتجه أندرو إلى مكتب البريد حيث أبرق إلى كاليز يعلمه بقبوله الوظيفة .

الفصل الحادي والعشرون

كانت مكاتب هيئة الفحم والمناجم تقع في بناء حجري ضخم في وسط لندن . وفي صباح مشرق من ايام آب ، صعد آندرو مسرعاً إلى البناء بروح معنوية عالية . وقال للحاجب : « انا الضابط الصحي الجديد . »

فأجابه الحاجب : « إن السيد غيل بانتظارك ، خذ الطبيب الجديد إلى السيد غيل يا جونز ! »

دخل آندرو إلى غرفة واسعة مشمسة حيث قابل السيد غيل ، وفيما هما يشربان الشاي ، أبدى غيل بعض الملاحظات

حول الطقس . ثم قاد آندرو إلى الغرفة المخصصة له . وقال مبتسماً : « أرجو أن تعجبك هذه الغرفة . »

— « أوه ، طبعاً . انها غرفة رائعة ! »

— « والآن سأعرفك على سكرتيرتك الآنسة ماسون . » ثم رافق أندرو إلى الغرفة التالية حيث كانت الآنسة ماسون وقال لها : « إنه الدكتور مانسون يا آنسة ماسون . »

— « صباح الخير يا دكتور مانسون . »

وبعد محادثة قصيرة عاد أندرو إلى غرفته حيث قال له غيل : « سأرسلُ لك بعضَ التقارير لتطّلع عليها . »

وطالع أندرو التقاريرَ بأسرع ما يمكن ثم ذهب إلى غيل يسأله متى يستطيع البدء في العمل ، فدُهِش هذا من السؤال لأنه كان يعتقـد أن قراءة التقارير تحتاج إلى شهر كامل ، ثم أعلمه أن الهيئة لن تجتمع قبل منتصف أيلول . وحتى ذلك الحين لن يكون هنالك أي عمل آخر يقوم به أندرو .

وعاد أندرو إلى كريستين ذلك المساء بخيبة أمل وقال لها : « هل تصدقين يا كريس أنه لن يكون لديّ أيّ عمل طيلةَ شهر كامل غير قراءة التقارير وشرب الشاي ! »

فقالت : « لا تكتئب فالمكان هنا جميل ، وهو أفضل من ابيرالو . لقد قمت بنزهة بعد الظهر ، أوه ، لقد خطّطْتُ لأمور كثيرة سنحققها معاً . والآن هيا ياعزيزي ، لنتناول العشاء خارج المنزل ! »

وفي الصباح قرأ أندرو كل تقرير مرة ثانية . ثم أخذ يطوف

في البناية إلى أن وجد في احدى الغرف شاباً يرتدي معطفاً أبيض متّسخاً . كان الشاب جالساً على صندوق ، وكان يدخن غليوناً .

فقال أندرو : « مرحباً ! »

فسألَهُ الرجل بصوت مُتْعَب : « هل ضللت الطريق ؟ »

فأجابه أندرو : « انني مانسون . »

— « لقد قدرتُ ذلك . اذاً جئت لتنضمَّ إلى الرجال المسنين ! أنا الدكتور هوب » .

— « وماذا تفعل هنا ؟ »

— « السماء تعلَم ! فبعضَ الاحيان أجلسُ هنا لأفكر ، ولكنني معظم الأحيان أجلسُ فقط . وبين الفينةِ والفينة ، عندما يقعُ انفجار ، يرسلون لي أشلاء أحد عمال المنجم الموتى لأحدّد سبب الوفاة . »

وسأله هوب : « هل تعرف غادسبي ؟ »

— « لقد تعرفت إلى هذا الرجل النبيل ! » قال اندرو ذلك ثم أخبره عما حدث له أثناء الامتحان .

— « ان غادسبي رجل ذكي ولكنه لا يهتم إلاّ بنفسه . » ثم ضحك فجأة وأخذ يخبر أندرو بنكتة رواها « أبي » عن غادسبي . ثم أضاف : ان « أبي » أفضل رجل في الهيئة ، أما الآخرون فانهم يمضون معظم وقتهم في الشجار !

وأخذ أندرو يتناول الغداء برفقة هوب كل يومٍ تقريباً .

وبالرغم من أن هوب كان دائماً مرحاً ساخراً فقد كان رجلاً ذكيـاً .

وبينما كان أندرو ينتظر موعد اجتماع الهيئة ، أخـذ يستكشف لندن برفقة كريستين .

الفصل الثاني والعشرون

وأخيراً ، بعد ظهر الثامن عشر من أيلول اجتمعت الهيئة ، فجلس أندرو إلى جانب هوب يراقب الأعضاء وهم يدخلون الغرفة الطويلة .

ثم نهض الرئيس وخاطب الجمع بقوله : « أيها السادة ، نحن سعداء اذ نرحب بالضابط الصحي الجديد . فالدكتور مانسون قد حقق بعض الاكتشافات الهامة وعلينا أن نتيح له كل الفرص ليطور تجاربه . ونحن نتمنى عليه أن يزور المناجم ويفحص عمالها في أنحاء عديدة من المدينة . كما سنقدم اليه كل المساعدات الممكنة بما في ذلك ... مهارة صديقنا الشاب الدكتور هـوب . »

فاطمأنت نفس أندرو لِما سمع .

الا أن الرئيس أضاف : « ولكن يا سادة ، قبل أن يباشر الدكتور مانسون هذا العمل ، أرى أنه يجب عليه أن يُعنى بحالات طارئة أخرى . أظن أنه يجب عليه أولاً أن يبدأ باجراء

دراسة عن المعدات الطبية التي تستعمل في حوادث المناجم . فمثلاً ، ليس هنالك قياس مجدد لعرضِ الضمادات . واني لأشعر أن على الدكتور مانسون أن يدرس هذه القضية ويرفع تقريراً يقترح فيه أفضل عرض وأفضل طول للضمادات ، لكل من حالات الحوادث الشائعة . »

فاعترض ابي : « ولكن مسألة الضمادات هذه قليلة الأهمية والدكتور مانسون ... »

— « انها بالتأكيد ليست قليلة الأهمية ! فلقد طلبت الحكومة هذا التقرير . »

فاعترض أندرو وقال : « أعذرني يا سيدي . لقد فهمت أن نشاطي سينحصر في العمل الطبي ، ولمدة شهر كنت أضيع وقتي بكسل . والآن اذا كنت تنتظر مني أن ... »

ثم توقف ونظر إليهم . فتدخل أبي مؤيداً : « ان حجة الدكتور مانسون لمنطقية ، فلقد أمضى أربع سنوات وهو يعمل بصبر في أبحاثه . والآن ، بعد أن أتيحت له فرصة توسيع نشاطه جئتم تقترحون توظيفه في قياس الضمادات ! »

فضحك الرئيس قائلاً : « اذا كان الدكتور مانسون قد صبر أربعَ سنوات ، فبامكانه أن يصبرَ مدةً قصيرة أخرى ! »

واشترى أندرو سيارة قديمة . ويوم الاثنين التالي قام هو وكريستين بجولته على مناجم الفحم .

كان العمل في غاية السهولة . اذ تولى أندرو فحص المؤن الطبية في عدة مئات من المناجم . ثم عاد إلى لندن حيث قدّم تقـريره .

وأرسلت هيئة المناجم والفحم التقرير إلى عضوٍ هام في الحكومة البريطانية فطلب هذا من أندرو الحضور إلى مكتبه فوراً. وقال له: «ان تقريرك ممتاز يا مانسون. والحكومة تعتزم تقديم قانونٍ جديد لضبط استعمال المؤن الطبية في المناجم والمصانع. وسيعتمد هذا القانون على تقريرك. ولكن هنالك توصيةً واحدة أرغب إليك في تغييرها. فلقد اقترحت أن يكون عرض الضمادة ثلاثة انشات، ولو كانت اضيق لكان ذلك افضل.»

فغضب أندرو وقال: «انني شخصياً أفضل الضمادة الكبيرة، ومع ذلك فلا أظن أن الفَرْق سيكون كبيراً!»

— «ماذا؟ لا فَرْق؟»

— «أجل، لا فرقْ على الاطلاق!»

— «انك تستخف بهذه القضية.»

عندئذٍ فقد أندرو أعصابه وقال: «هل نزلت يوماً إلى منجم؟ أنا نزلت وأجريت عمليةً لِعيْنةً على ضوء مصباح واحد في مكانٍ ضيق جداً، لذا أقول لك إن حجم الضمادة لا يؤثـر.»

وفي الحال أدرك أندرو أن هذا المكان ليس مكانَهُ المناسب، فقدّم استقالته من منصبه الجديد. وحاول غيل أن يقنعـه بالبقاء، لكن هوب قال: «لا تصغِ إليه فأنت محظوظ! أما أنا فسأغادر هذا المكان فور حصولي على منصبٍ آخر، هذا اذا لم أُجَنّ قبل ذلك!»

وبعد عدة شهور، أعلنت الحكومة بناء للمعلومات المقدّمة من الدكتور غادسبي، أن غبار الفحم يسبب مرضاً خطيراً يدعى التسمم السيليكي. وفي اليوم التالي، أثنت الصحف على عمل غادسبي الرائع ونعتته بالطبيب العظيم!

الفصل الثالث والعشرون

في هذه الأثناء بدأ أندرو وكريستين البحث عن عيادة. وكان قد تجمع لديهما مبلغ ستمئة جنيه. ولكنه بدا أن هذا المبلغ لم يكن كافياً لشراء عيادة في لندن. وبعد أن أشرفا على اليأس، سمع أندرو أن أحد الأطباء في مقاطعة بادنكتون قد توفي وأن عيادته معروضة للبيع بثمن يناسبهما.

ولكنهما عندما توجها لمشاهدة البيت الكبير البارد الذي سيصبح منزلهما، أصيبا بخيبة أمل. مع ذلك فقد وجد أندرو نفسَهُ مضطراً إلى شرائه.

وحين انتقلا إلى منزلهما الجديد قال أندرو لزوجته: «لقد أنفقنا كل أموالنا يا كريس، ويجب أن تكوني شديدة الحذر في مصروف البيت.»

فانفجرت كريستين بالبكاء وقالت: «حذرة؟ ألمْ أكن دائماً حذرة؟»

— «ما بك يا كريس؟»

— « أوه ، انني أكره هذا المنزل ، انه مظلم ومتسخ ! وانـــني ... »

فأمسك أندرو بيدها وهو يحاول تهدئتها : « ولكن يـــا كريس ، المهم هو العيادة وليس المنزل ! »

وفي التاسعة من صباح اليوم التالي افتتح أندرو عيادته . وكان قلبه يضرب بسرعة لشدة تأثره . وأعلنت الساعة التاسعة والنصف وأندرو ينتظر بقلق ، إلى أن أعلنت الساعة الحادية عشرة ولم يصل أي مريض .

ولكن ، فجأة رن جرس العيادة ، ودخلت امرأة عجوز كانت تشكو من سعال شديد . وفحصها أندرو ثم أعطاهـــا زجاجة دواء دفعت ثمنها ثلاثة شلنات وستة بنسات .

وشعر أندرو بابتهاج بالغ وكان هذا المبلغ هو أول مبلغ يجنيه ، فَهُرِع إلى كريستين وأراها النقود قائلاً : « أول مريض يا كريس ! بهذه النقود سنشتري طعام الغداء ؟ ! »

ذلك المساء زاره ثلاثة مرضى في العيادة . ولكنه لم يستقبل أي مريض في اليوم التالي . وهذا ما جعله يتساءل ما إذا كان قد اقترف خطأ كبيراً بشرائه تلك العيادة المهملة ، وأضحى هو وكريستين معدمَيْن إلى درجة أنهما لم يتمكنا من الأكل بالقدر الكافي أحياناً . وكانا يتناولان طعامهما في مطعم رخيص تملكه سيدة قصيرة ، المانية الجنسية تدعى السيدة سميث . ولقد أحبتهما هذه السيدة ووعدت أندرو بأن تبعث إليه بالزبائن .

الفصل الرابع والعشرون

شعر أندرو بحاجة ماسة إلى مصادقة طبيب جديد . ف «دني» كان في الخارج يعمل في احدى شركات النفط . أما هوب فقد كان يعمل في شمال انكلترا . ولذا قرر أندرو أن يهتف لفريدي هامسون .

— « انني مانسون ، أندرو مانسون . لقد اشتريت عيادة في لندن . »

— « مانسون في لندن! بحق السماء، لماذا لم تهتف لي من قبـــل ؟ »

فقال أندرو وهو يبتسم لنفسه : « أوه ، لقد كنت غارقاً في العمل ! لقد تزوجت يا فريدي . »

— « وأنا كذلك! يجب أن نلتقي فوراً يا أندرو . هل تستطيع الحضور إلى العشاء يوم الخميس ؟ حسناً ! فهذا رائع ! »

واقترحت كريستين على آندرو أن يذهب بمفرده ، باعتبار أنها لم تكن تحبّ فريدي كثيراً ولكنه أقنعها بمرافقته . وعندما وصلا إلى منزل هامسون الفخم استقبلهما فريدي استقبالاً حاراً وقال : « انه لرائع أن نلتقي بكما ثانية . هل أعجبك المنزل يا أندرو ؟ ألمْ أقل لك انني سأنجح ؟ »

وكان أندرو على وشك أن يُعربَ عن اعجابه به عندما دخلت السيدة هامسون . وعلى الأثر ، وصل باقي المدعوين . ثم دخل الجميع لتناول العشاء .

وما إن شرب أندرو كأسين من النبيذ حتى شعر بالسعادة تغمره ، فأخذ يصغي باهتمام إلى « ايفوري » ، و « ديدمان » ، وهما طبيبان مشهوران . لقد تكلما بصوتٍ عالٍ عن خبراتهما في الحقل الطبي . فقال أندرو لنفسه : « يجبٌ أن أوثّقَ صلتي بهذين الرجلين ، فهما ثريان وناجحان كثيراً ! »

ثم قال ايفوري : « لقد قمت بحيلة ذكية ذلك اليوم . فقد أقنعت مريضاً بأن يخضع لعلاج مؤلف من اثنتي عشرة جلسة . وأبلغته أن الاجر العادي لهذا العلاج خمسون جنيهاً ، وانني مستعدٌ لتخفيضه حتى خمسة وأربعين اذا كان الدفع سلفاً فحرَّرَ لي شيكاً على الفور ! » .

فضحك فريدي وقال : « هكذا يُجمع المال ! وزجاجة دواء كانت تعطي النتيجة نفسها ! »

واستمروا في الحديث على هذا النحو بعد العشاء . بينما كان أندرو يصغي ويدخن ويشرب . وعندما قالت كريستين إنه آن وقت الانصراف ، قال ايفوري بحماس : « اذا احتجت لنصيحتي في أية قضية يا مانسون ، أخبرني ، فسأكونُ دوماً سعيداً بمساعدتك . »

فشكره أندرو ، وسار نحو الباب بخطوات غير ثابتة .

وفي الطريق إلى المنزل قال أندرو وهو يشعر بالسرور : « لقد أمضينا وقتاً ممتعاً ! أليس كذلك يا كريس ؟ »

فقالت ببرود : « لقد أمضينا وقتاً بغيضاً ! »

— « ماذا تقولين ؟ »

— « انني أحب دني و«هوب» ، ولا أحب هؤلاء الناس ! »

— « لماذا ! ماذا تقصدين ؟ ما العيب في ... » .

— « كل شيء ! الطعام ، الأثاث ، طريقة حديثهم . إن همّهم الوحيد هو المال ! »

فأخطأ أندرو فهمها وعلّل غضبها بالغيرة وقال : « سأحصل لك على المال يا كريس ! »

— « أنا لا أريد مالاً ! »

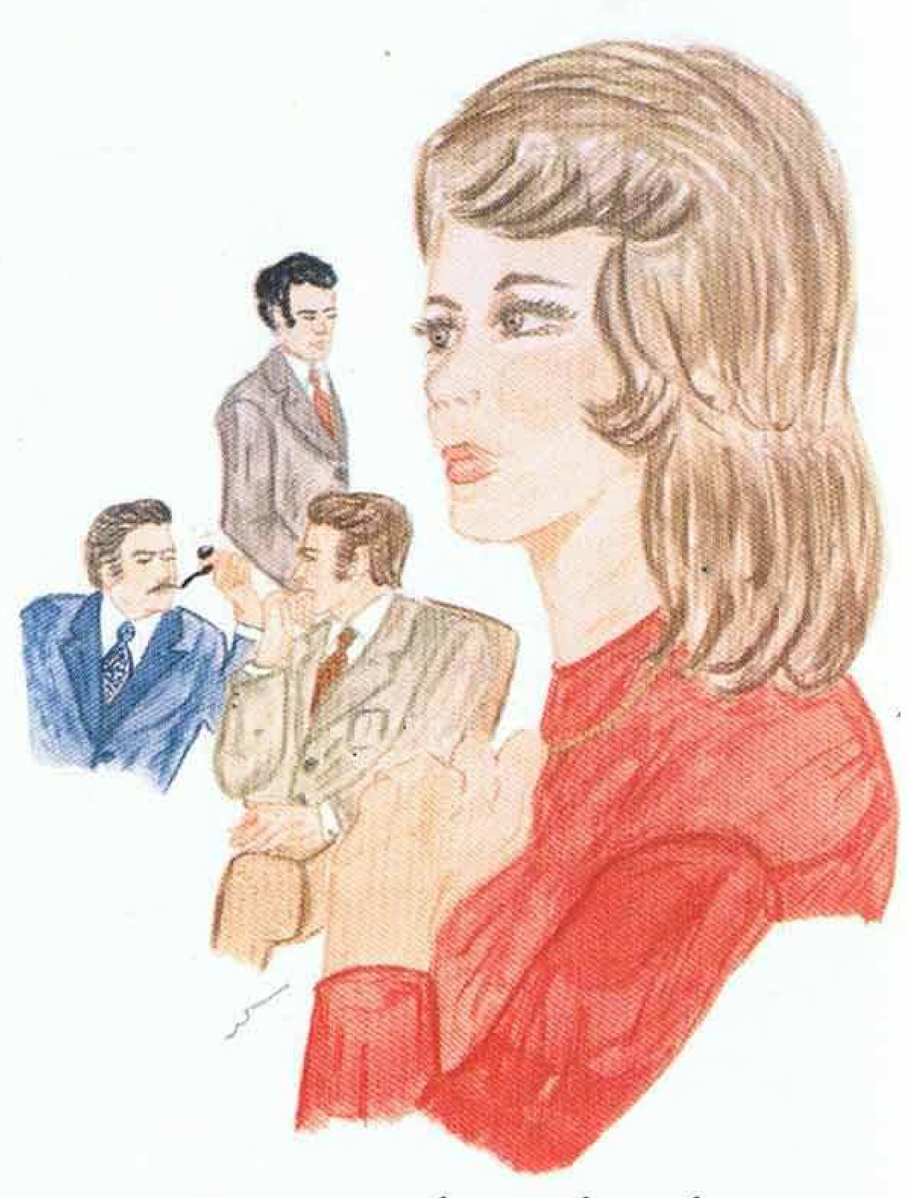
— « ولكن يا حبيبتي ... » وحاول أن يطوّقها .

— « لا تفعل ! فأنا أحبك يا أندرو ، ولكن ليس عندما تكون ثملاً ! »

وفي الصباح التالي ، بحث أندرو في أحد الكتب الطبية عن مؤهلات كل من ايفوري ، وديدمان وهامسون . ودهش عندما وجد أن مؤهلات هؤلاء الأطباء الأثرياء هي دون مؤهلاته . فقال لنفسه : « بامكاني أن أحقق نتائج أفضل منهم ! »

وفجأة قرر أندرو أن يبحث عن عمل جزئي في أحد مستشفيات لندن . وهكذا ذهب لمقابلة السيد روبرت أبي ، الذي وعده قائلاً : « سأبذل جهدي لمساعدتك . ومستشفى فيكتوريا سيكون الأفضل بالنسبة لك . »

وعاد أندرو إلى منزله وقلبه يطفح بالسعادة . وأخبر كريستين بنتائج مقابلته لروبرت أبي . وعندما شاهد الفرحة تشع من عيني كريستين شعر بالأسف وقال : « لقد كنتُ سيء الأطباع في الفترة الأخيرة ! هل ستغفرين لي يا كريس ؟ »



أصدقاء أندرو لا يأبهون بنجاحه ٦

فركضت إليه قائلةً إنها كانت غلطتها هي .

وأخذ أندرو يعمل بتصميم أكثر ، وهو شاعر بأن الحظ سيكون حليفه عما قريب . وبدأ العمل في عيادته يتحسن تدريجياً . لكن الأمر لم يخلُ من خيبة الامل أحياناً ، فبعض الحالات التي عالجها كانت خطيرة وبحاجة ماسة إلى دخول المستشفى . ولكنه قلّما وُفق إلى اقناع أيّ مستشفى بقبول أكثر الحالات خطراً . وكان كلما هتف لمستشفى يُقابل بالسؤال نفسه : « دكتور من ؟ كلا ، كلا ! نأسف إذ ليس عندنا أسرة شاغرة ! »

وفي أحد الأيام عاد أندرو إلى البيت وهو يشتم : « ان لديهم العديد من الأسرة لأطبائهم ، أما إذا كان الطبيب غريباً عنهم فانهم يرفضون قبول مرضاه ... »

كان أندرو ما يزال يترقبُ مخابرة « أبي » بخصوص العمل في المستشفى . كما أنه استاء لعدم تلقيه أي مخابرة من هامسون ، أو من أصدقائه منذ ذلك العشاء .

وفي مساء أحد الايام، في أواخر شهر نيسان، جلس في عيادته والبؤس يغمره . وبينما كان على وشك اقفال العيادة ، في التاسعة والنصف تقريباً ، دخلت عليه فجأة سيدةٌ شابة .

وسألها أندرو : « ما هي مشكلتك ؟ »

فابتسمت وهي تجلس : « لقد نصحتني السيدة سميث ، صاحبة المطعم الصغير ، بزيارتك يا دكتور . أنا الآنسة كرامب ، أعمل في متجر كبير للملبوسات . أما مشكلتي فهي في يديّ . لقد زرت عدة أطباء في هذه المنطقة ولكن دون جدوى . »

فنظر أندرو باهتمام إلى يديها اللتين كانتا حمراوين ومتقرحتين . ثم أعاد فحصهما بدقة أكبر وقال : « أنتِ تعانين من مرض جلدي نادر الوجود ، والأدوية عديمة الفائدة بالنسبة لك ، إذ أن مرضك ناتج عن الطعام الذي تأكلين . »

— « حسناً ، ولكن هذا شيء لم يخبرني به أي طبيب من قبـــل ! »

فضحك وكتب لها لائحة بالمأكولات التي يتوجب عليها تجنبهـــا .

فأخذت اللائحة بتردد وقالت : « سأعمل بنصيحتك يا دكتور ، سأحاول أي شيء ! » ثم دفعت له رسم المعاينـــة وخرجت .

وبعد عشرة أيام عادت إلى أندرو تخبره بالنتيجة : « أنظر إلى يديّ يا دكتور ، لقد شفيت ! أنا جد مُمْتَنَّة لك ! »

الفصل الخامس والعشرون

كان شفاء الآنسة كرامب مفاجأة وموضوع بحث مثير في المتجر الذي تعمل فيه . ولقد نصحت فتياتٍ أخريات يعملن معها بالذهاب إلى أندرو واستشارته .

وفي الاسبوع الأول من حزيران ، تسلم أندرو رسالةً تطلبُ إليه عيادةَ الآنسة « ايفيريت » في منزلها . وهي امرأة

ثريّة تسكن في منطقة راقية من لندن . فقال أندرو لنفسه : وهو يقفل عيادته في وقت مبكر : « وأخيراً ، انها فرصتي ! » ثم غادر منزله لعيادة الآنسة ايفيريت .

فتحت له الباب خادمة قادته إلى غرفة كبيرة حسنة الأثاث . وهنالك كانت بانتظاره الآنسة ايفيريت وهي سيدة تناهز الخمسين ، رمقته بنظرة واحدة ثم دخلت فوراً في صُلب الموضوع ، فقالت : « لقد توفي طبيبي الخاص . وهذا أمر مؤسف لأن ثقتي به كانت كبيرة . إلاّ أن الآنسة كرامب نصحتني باستشارتك . وأظنّ أنك قد تناسبني . فأنا أتلقى بصورة مستمرة علاجاً لحمى القشّ في مثل هذا الوقت من السنة . أظنك تعرف ما هي حمى القشّ ؟ »

— « أجل ، ولكن أيّ علاج تتلقين ؟. »

فذكرت اسم علاج شائع وقالت : « ان طبيبي الأخير نصحني باستعماله . وثقتي به كبيرة . »

وأحبَّ أندرو أن يخبرها أن هذا العلاج عقيم ولكنه قدّر أن ذلك سيكون عملاً أحمق . ولم يكن راغباً في المخاطرة بهذه الفرصة التي تتيح له الحصول على المال ، فقال : « إذاً سأعطيك العلاج نفسه يا آنسة ايفيريت . »

— « حسناً ! اني أقترح أن أدفع لك جنيهاً عن كل زيارة . فهل توافق على هذا الاتفاق ؟ »

جنيه عن كل زيارة ! إنه لم يتقاضَ في يوم من الايام مثل هذا المبلغ ! فاذا بفكرة وصف علاج لا يؤمن به لا تقلقه .

فماذا يهم إذا كان العلاج عقيماً ؟ لقد ملّ من الفشل وبات يتطلع إلى النجاح ، وسينجح !

وزارها في اليوم التالي عند الحادية عشرة . ثم أخذ يزورها مرتين في الاسبوع . وحدّثها عن طموحه من أجل النجاح فشجعته .

وفي زيارته الأخيرة ، حررت له شيكاً بقيمة إثني عشر جنيهاً . ثم أوصلته إلى الباب وقالت : « هل تعمل بنصيحة سيدة في سن والدتك ؟ إذا كنت تريد أن تنجح فاذهب إلى خياط بارع لأنك لن تنجح بهذه الثياب ! »

فسار في الطريق وهو يكيل لها الشتائم ، ولكن انزعاجه سرعان ما تبدد حين فكر : انها محقة ، فكيف يمكنني اجتذاب مرضى الطبقة الراقية وأنا ألبس هذه الثياب ؟

وعندما وصل إلى منزله ، عرض الشيك على كريستين وهو يقول : « انظري إلى هذا ! هذا مال حقيقي يستحقه طبيب ذو مؤهلات عالية ! اثنا عشر جنيهاً مقابل اعطاء الآنسة ايفيريت علاجاً على طريقة ال ... »

« ما هذا ؟ » قالت ذلك وهي تبتسم ، ثم شعرت فجأة بالشك وسألته : « أليس ذلك ثمن المادة التي قلت إنها عقيمة ؟ »

واستاء أندرو من هذا السؤال وغادر الغرفة .

وفي اليوم التالي ، ذهب إلى خياط ماهر واشترى بذلتين جديدتين . وشعر ببعض الحرج عندما نزل لتناول الفطور وهو يرتدي احدى البذلتين . وحين رأته كريستين صرخت : « أندرو !

انك تبدو رائعاً ! هل تنوي الذهاب إلى مكان ما ؟ »

— « انني ذاهب لعيادة مرضاي طبعاً ! هل أعجبتك ؟ »

— « أجل ، انها رائعة . ولكنك تبدو فيها غريباً ! »

— « أظنك تفضلين أن يكون لباسي رديئاً ! »

وبعد ثلاثة أسابيع طلبت منه الآنسة ايفيريت الذهاب لمعاينة صديق وقريب لها . وكان كلاهما يطلب نفس العلاج لحمى القشّ . وعالجهما أندرو دون أن يشعر بوخز الضمير ، بل على العكس شعر بالرضا وكأنه يحقق نصراً . فطموحه للنجاح أنساه النقد المرّ الذي كان يوجهه إلى الأطباء الذين عملوا على هذه الأسس ، كما أنه نسي أن التقدم الذي أحرزه في عمله بدأ على يد سيدة المانية سمينة في مطعم متواضع .

وما هي إلاّ أيام حتى أتيحت لأندرو فرصة مثيرة أخرى ، إذ رنّ جرس الهاتف ، وجرت المحادثة التالية :

— « دكتور مانسون . هنا السيد وينش ، مدير متجر الملبوسات الذي تعمل فيه مريضتك الآنسة كرامب . في المحل مريضة فهل تستطيع الحضور فوراً ؟ »

— « سأوافيك خلال اربع دقائق . »

كانت الآنسة كرامب بانتظاره ، وأوضحت قائلة : « إنها الآنسة لي روي . وقد نصحتُ السيد وينش بأن يستدعيك . »

في تلك اللحظة جاء السيد وينش وقاده إلى غرفة صغيرة حيث كانت الآنسة لي روي ممددة على الارض تصرخ وتبكي . كانت تناهز الرابعة والعشرين زرقاء العينين ، شقراء الشعر .

وركع أندرو إلى جانبها بينما ركعت إلى الجانب الآخر سيدة أخرى أخذت تردد كلمة : « أوه توبي ، توبي » .

وقال أندرو : « انها حالة خطيرة جداً . لطفاً ، احضروا لي كرسياً . »

وحمل المريضة ببطء وتأنٍّ ووضعها على الكرسي فيما كانت تصرخ . ثم أمسك برأسها وهمس في أذنها بعض الكلمات ثم صفعها على وجهها فتوقفت فوراً عن الصراخ . بعد ذلك التفت إلى صديقتها وقال معتذراً : « انني آسف . فلقد كان ذلك هو الحل الوحيد ، إذ كان يخشى عليها أن تؤذي نفسها إذا ما استمرت في الصراخ . »

— « يجب أن أنقلها إلى البيت . هل تأتي معنا ؟ »

وهكذا نقلا الآنسة لي روي بالسيارة إلى منزلها ، حيث فوجيء أندرو إذ لم يسبق له أن دخل بناء بمثل هذه الفخامة .

وهناك ألقت المريضة بنفسها في كرسي مريح وقالت لصديقتها : « اقرعي الجرس يا عزيزتي واطلبي لي شراباً . أشكر الله أن والدي غائب عن البيت ! »

وأحضر الخادم بعض المسْكرات وعندما انصرف ابتسمت صديقةُ توبي لأندرو وقالت : « أنا السيدة لورانس . أظنّ أنه من الأفضل أن أوضّح لك الذي حصل يا دكتور . لقد ثارت توبي من أجل ثوب كانت قد أوصت عليه . وكانت متعبة منذ مدة بحيث أصبحت عصبية المزاج . » وتوقفت قليلاً ثم أضافت : « نحن مدينون لك بالكثير يا دكتور . »

عندئذ نظرت توبي إلى أندرو وقالت : « لقد جُننت يا دكتور ، أليس كذلك ؟ قلها يا دكتور ، قلْ انني جُننت ! »

— « لا ، لقد كانت نوبة حادة ، وانني أعتذر ... والآن يجب أن أرجع إلى عملي . ارسلي في طلب طبيبك غداً ، إلى اللقـــاء ! » .

الفصل السادس والعشرون

في الصباح التالي وبينما كان أندرو على وشك عيادة بعض مرضاه الفقراء ، هتفت له السيدة لورانس وطلبت منـــه ، بطريقة جد ودية ، أن يعرّج على الآنسة توبي .

فذهب أندرو مباشرة إلى منزلها حيث التقى السيد لي روي ، الذي رمقه بنظرة سريعة وقال : « اسمع يا دكتور ، فأنا في عجلة من أمري ! وأنت شاب ذكي ! عالج ابنتي وأوقف كل حماقاتها وبكاءها وصراخها الذي لا سبب له ! »

وعندما صعد أندرو إلى الطابق العلـــوي ، وجد السيدة لورانس بانتظاره خارج غرفة الآنسة توبي .

وجذبه هدوؤها وسلوكها اللطيف . ومن غير أن يشعر أصبحت تؤثّر في كثير من أعماله وتصرفاته .

وذات يوم اقترحت عليه شراء سيارة لتسهيل مهامه .

ولم يبدِ أندرو أية ملاحظة حول الموضوع لكريستين ، بل أخذ يتساءل كيف يمكن لطبيب أن يرفع نفسه إلى مستوى رفيع

من غير سيارة ! وإذا لم يكن بمقدوره أن يشتريها فمن الخير له من أن يقسّط ثمنها على سنتين أو ثلاث .

وما هي إلاّ ثلاثة أسابيع حتى قاد أندرو سيارته الجديدة الفخمة إلى منزله وراح ينادي : « كريستين ! كريستين ! تعالي أريك شيئاً ! »

لقد تعمد مفاجأتها ونجح .

— « هل هذه لنا يا أندرو ؟ أوه ، يا للروعة ! »

— « أجل ، تفضلي واجلسي يا سيدة ، سآخذك في نزهة ! »

وأخذت كريستين تثني على السيارة المرةَ تِلْوَ الأخرى بينما كان أندرو يقودها عَبْرَ الشوارع . ولكن نزهاتهما مـــا لبثت أن أصبحت نادرة . وقالت كريستين ذات يوم والسعادة تغمرها : « لقد أصبح بامكاننا أن نذهب كلَّ أحد في نزهة الى الريف . اوه ، سيكون ذلك رائعاً ! » .

— « أوه ، هذا حسن ، ولكننا يجب أن لا نتعوّد هذا ، فالسيارة للعمل وليست للنزهات . »

ثم عادا إلى المنزل بصمت .

يوم الخميس ، وبينما كان أندرو يغادر منزل آل روي التقى بفريدي هامسون فحيّاه . فردّ عليه هذا بقوله : « مرحباً ! ماذا تفعل هنا ؟ »

— « أنا أعود مريضتي ! إنها ابنة لي روي . »

— « لي روي ! »

وكمْ سُرّ بدهشة فريدي ، وضع أندرو يده على باب

سيارته الجديدة وقال : « بأي اتجاه أنت ذاهب ؟ هل يمكنني أن أوصلك إلى مكان ما ؟ »

فأجابه فريدي : « انني ذاهب إلى مستشفى ايدا شيرينغتون ويمكنك أن توصلني إلى هناك إذا رغبت . »

وفي الطريق إلى المستشفى أخذ فريدي يتذكر كيف استقبل أندرو في لندن بحفاوة على أمل الافادة من استشارة أندرو له في حالة يُمكنُهُ أن يتقاضى عنها ثلاثة جنيهات من المريض . لكنّ هذا التغيُّرَ المفاجىء في وضع صديقه أقنع فريدي بـأن أندرو سيكون مفيداً أكثر مما توقع .

وعندما وصلا إلى المستشفى اقترح فريدي على أندرو أن يعرفه على « إيدا » موضحاً : « ان مستشفاها من أسوأ مستشفيات لندن ، لكنها تجني الكثير من المال . »

فقال أندرو : « حسناً . »

— « إذن تعالَ معي وعاينْ مريضتيّ العجوزَ السيدة رايبورن . فأنا و « ايفوري » نجري عليها بعض التجارب . تعالَ وافحص صدرَها ، فهذا سيسرها ، وستدفع لك خمسة جنيهات ! »

فقال أندرو : « ولكن ما علةُ صَدْرِها ؟ »

فابتسم فريدي قائلاً : « لا شيء ! لا تندهش ! فهكذا نعملُ أنا و « ايفوري » و « ديدمان » هنا . يجدرُ بك الانضمامُ إلينا فنجاحُ جهازنا سيُدهشك . »

خرج أندرو من السيارة ونظر إلى البناء المرتفع البارد ،

وتساءلَ كيف يمكن للمريض الاستشفاء في مكان كهذا .

ودخلا المبنى . وتقدّما إلى مكتب صغير حيث جلست امرأة مكتنزة حمراء الوجنتين . وقال فريدي : « صباح الخير يا ايدا ، لقد أحضرت الدكتور مانسون لمقابلتك . »

وبعد أن حيّته ايدا بطريقة ودية ، تحادثا بضعَ دقائق . ثم قاطعهما فريدي قائلاً : « انظري إليه جيداً ، فعما قريب سيرسل لك كثيراً من الزبائن . »

وضحك فريدي ثم قاد أندرو إلى الطابق العلوي ليعاين السيدة رايبورن . وكانت تُناهز الستين . وبعد أن جلس فريدي على السرير بقربها أخذ يحادثها ثم أبلغها أن السيد إيفوري سيعرّجُ عليها في اليوم التالي ليُبلغَها بنتيجة تجاربه الهامة ، ثم طلب منها أن تسمحَ للدكتور مانسون المتخصص بأمراض الرئة بفحص صدرها . وسرّت السيدة رايبورن بالاقتراح . كانت امرأة ثرية وكانت تحب أن تُنفق أموالها على صحتها .

وعندما خرجا من الغرفة قال فريدي : « لن يمكنك أن تتصور المبالغ التي جنيناها من هذه العجوز ! »

ولم يُجبْ أندرو . فقد أثار المكانُ في نفسه الاشمئزاز ، إذ لم تكن العجوز تشكو من أي شيء ، بالاضافة الى أن تصرف فريدي كان مَعيباً .

وفي نهاية الشهر عندما تسلم أندرو شيكاً بقيمة خمسة جنيهات من السيدة رايبورن قرر أنه كان غبياً لشعوره بما شعر . فقد قدّم لها خدماته واستحقّ أجره ! فقبل الشيك مرتاحَ الضمير .

الفصل السابع والعشرون

تخطّى أندرو الأيام العصيبة ، وتقاطرَ العديد من الناس على عيادته ، حتى لقد أصبح غيرَ قادر على أن يمنَحهم العنايةَ الكافيــة .

وذاتَ صباحٍ قال لكريستين : « اسمعي يا كريس ، لقد فكرتُ بطريقة لتوفير الوقت . اريدكِ أن تتولي أمرَ الأدوية عني . فأنا أضيعُ حوالي خمسِ دقائقَ في تحضير دواء كلّ مريض . وخلال هذه الدقائقِ الخمسِ يمكنني فحصُ مريض آخر ! »

فنظرت إليه وقالت : « لكنني لا أعرفُ شيئاً عن الأدوية ! »

فابتسم أندرو قائلاً : « هذا لا يهمّ يا عزيزتي . فقــد حضّرت كمية كبرى من نوعين مختلفين من الأدوية . وسوف أخبرك عن نوع الدواء الذي ستعطينهُ لكل مريض . وعندئذ يتوجب عليك تعبئة الزجاجة وتقديمها إليّ . »

— « ولكن ، أوه ! هل تظن يا أندرو ... »

— « أوه ، انني أذكر الهراء الذي كنت أقوله عن الطب في أبيرالو ! ولكنّي الآن طبيب عمليّ . وهذه الأدوية لا تؤذي ! »

وأدركت كريستين أن الجدال معه لن يفيد ، فوافقت .

وأخبرته كريستين يوماً أن أحد الأدوية قد نَفِد . فصرخ قائلاً : « هذا لا يهمّ . أعطيهِ من الآخر ! أعطيه ماء ملوّنة ! أعطيهِ أيّ شيء ! »

وبعد الفراغ من المعاينات المسائية كان أندرو يجلس ليجري

حساباته ويخبر كريستين : « بحق السماء كريس ، اننا نتقدم ! لقد جنيتُ ثمانية جنيهات ! » ثم وضع النقود في الدرج وأقفله وأضاف قائلاً : « عمّا قريب سنصبح أثرياء ! »

وما هي إلا فترة قصيرة حتى أصبح بامكان أندرو أن يطلب من كريستين شراء أثاث فاخر لمنزلهما .

فقالت : « ولكن شراء أثاث غالي الثمن يعني ... »

ومن غير أن يلحظ المرارة في صوتها ، ضحك وقال : « أجل يا عزيزتي ، لقد آن الأوان للتخلص من هذا الأثاث الـــزّريّ ! » .

فانفجرت كريستين باكية وقالت : « انك لم تكن تعتبره زَريّاً في أبيرالو . أوه ، كانت تلك أياماً سعيدة ! » ثم هرعت خارجة من الغرفة .

دُهش أندرو وفكّر بانزعاج : « انها لا تبالي بنجاحي ، لا تبــالي ! »

لكن معظم الناس أبدوا احترامهم له .

وبعد شجاره مع كريستين باسبوع تقريباً ، اتصلت به السيدة لورانس تدعوه إلى حفلة الغداء يوم الجمعة القادم ، وأوضحت : « سيكون في الحفلة شخصية أو شخصيتان مهمتان أودّ أن أعرفك عليهما . »

قَبِلَ أندرو الدعوةَ ، ولكنه خشيَ أن ينشب شجار جديد بينه وبين كريستين . ولذا ، انتظر حتى يوم الجمعة ليخبر كريستين أنه سيتناولُ الغداء مع فريدي ، ثم انطلق بسيارته

إلى منزل السيدة لورانس وهو مطمئن النفس .

هنالك التقى أندرو بالعديد من الشخصيات المعروفة ، ومن بينها واحد من أشهر أطباء لندن . كانت المائدة سخيّة ، وخلال الطعام وبعده شارك في المناقشات واستمتع بكل لحظة على الرغم من ان الحديث كان مُمِلاً . ثم إنه عاد إلى منزله بشعور من الرضا .

وعند الصباح أصيب أندرو بصدمة قوية . فقد هتف له فريدي ليسأله : « هل استمتعت بغدائك أمس ؟ كيف علمت بذلك ؟ ألمْ تقرأ الصحف ؟ »

فهُرِع أندرو إلى غرفة الجلوس وأخذ يقلبُ صفحات الجريدة بسرعة ، وكم كانت دهشته كبيرة عندما رأى صورة السيدة فرانسيس لورانس مع تحقيق عن حفلتها ذُكِرت فيه أسماء المدعوين ، فمزّق الصحيفة وألقى بها في النار .

لكن كريستين كانت قد قرأت الجريدة فجُرِحت في الصميم . لماذا لم يخبرها أندرو ؟ لماذا ؟ لماذا ؟ لقد حزنت على أندرو أكثر مما حزنت على نفسها ، فهي تدرك أن الأغنياء يمرضون كالفقراء ، إلاّ أنها شعرت أن أندرو كان يضحي بكل القيم في سبيل الحصول على المال فقط .

وحاولت القيام بأعمال المنزل رغم حزنها .

وفجأة رن جرس الهاتف . وإذ لم يكن أندرو في البيت أجابت هي . وسُرعان ما برقت عيناها بالابتهاج وطفقت تنظر من النافذة بشوق في انتظار عودة أندرو . لقد نسيَتْ حزنها

بعد أن تلقت أنباء سعيدة !

وعندما عاد هُرِعت إلى الرواق وهي تناديه : « أندرو ! لقد اتصل السيد روبرت أبي منذ قليل . لقد عُيِّنتَ في مستشفى فيكتوريا . »

فاغرورقت عيناه بالدموع لشدة تأثره وقال : « إنه لنبأ مُفْرِح ياكريس ! »

فعانقته وقبّلته قائلة : « من غير ريب . »

الفصل الثامن والعشرون

كان مستشفى فيكتوريا مستشفى عتيقاً قائماً في شارع حقير كثير الضجيج وكان القسم الذي عمل فيه أندرو قذراً تفوح منه رائحة القِدَم .

وعملَ أندرو في مستشفى فيكتوريا بعد الظهر مرتين في الاسبوع . وكان مرضاه يشكون من أمراض الرئة ، لكنه بالرغم من حماسه للمركز الجديد لم يستطع أن يفيَ عمله حقه . اذ فقد الاهتمام باكتشافاته حول غبار الفحم وأصبح منشغلاً بأمور أكثر أهمية ! وكان يكتفي بالقاء نظرة خاطفة على كل مريض ثم يعطيه زجاجة دواء .

وبعد ستة أسابيع من بدء عمله في مستشفى فيكتوريا ، تسلّم أندرو رسالة من « دني » . فصرخ فرحاً وقال : « انه عائد إلى

الوطن ، ليعمل في انكلترا . أوه ، كم هو جميل أن أراه ثانية ياكريس ! »

كانت فرحة كريستين تعادل فرحة أندرو ، ولكن لسبب آخر . فقد كانت تشعر دائماً أن لـ « دني » و « هوب » تأثيراً على أندرو . وهكذا اقترحت دعوة « دني » و « هوب » إلى العشاء يوم الاحد القادم .

وفي الموعد المحدّد وصل « دني » وقد بدت عليه آثار التقدم في السنّ . ولكن تصرّفاته دلت على أنه قانع بما قُسِم له . وقال وهو يحييهما : « إنه منزل فخم . »

وعندما قدمت له كريستين النبيذ رفض أن يتناوله قائلاً : « لا ، شكراً . فأنا لم أعد أشرب ، وانني أنوي ان أحيا حياة صالحة مستقرّة . ثم أخبرهما بأنه قد حصل على مركز جيد في أحد مستشفيات الريف ، فرمقه أندرو بنظرة سريعة وقال : « لا تدفن نفسك في الريف يا فيليب ! فمؤهلاتك تمكّنك من أن تحصل على مركز أفضل في لندن . تعالَ إلى لندن ! »

وهنا سأل « دني » كريستين : « ماذا فعلت به ؟ إنه لا يبدو وكأنه نفس الرجل الذي نسف معي المجرور في دراينفي ! »

في تلك اللحظة وصل هوب . ولم يسبق له أن اجتمع بـ « دني » من قبل ، إلا أنه أعجب به على الفور . وما هي إلا خمس دقائق حتى جلسوا إلى العشاء وأخذ « هوب » و « دني » يمازحان أندرو ويلقيان النكات حول نجاحه .

واستمر الحديث على هذا النحو أثناء الطعام ، ثم بدأ يأخذ

طابعاً أكثر جدية . ففي بادىء الامر ، كان أندرو شبه صامت . وعلى الرغم من أنه كان سعيداً برؤية فيليب ثانية ، فانه شعر أن صديقه القديم لم يُقدِّر نجاحَهُ كما يجب . ولكن ، على كل حال ، لقد نجح في النهاية ، بل حقق نجاحاً باهراً ! وماذا حقق دني ؟ وأوشك عدّة مرات أن يطلب من دني وهوب أن يكفّا عن المزاح . غير أنه عندما بدأ الحديث عن المستشفيات شارك أندرو في المناقشة باهتمام .

— « إن كل المستشفيات قديمة ! فمستشفى فيكتوريا على وشك الانهيار ! كذلك معظم مستشفيات لندن ! والأبنية عفنة والشوارع كثيرة الضوضاء فكيف يمكن للمريض أن يتحسّن في مثل هذه الأوضاع ؟ إن الجهاز كله خطأ ! »

فابتسم فيليب بانزعاج وسأله : « حسناً ، ما هو العلاج ؟ ماذا تقترح ؟ مجلس مراقبة جديد تتولى أنت زمامه لتعيد تنظيم كل المستشفيات ؟ »

فقال أندرو غاضباً : « لا تكن غبياً يا دني ! ان الحل المنطقي الوحيد هو بناء مستشفيات جديدة خارج لندن ، في مناطق هادئة حيث الهواء العليل . ولو كنت أنا المسؤول ... »

واستمر الحديث إلى ما بعد منتصف الليل ، انتقد خلاله دني جهل بعض الأطباء بينما انتقد هوب تبديد الإمدادات الطبية .

وخرج هوب بعد منتصف الليل بقليل . وبينما كان أندرو خارج الغرفة يودّعه ، قدم دني إلى كريستين هدية صغيرة كان قد أحضرها لها معه من خارج البلاد . وحاولت كريستين أن

تشكره لكنه منعها وقال : « لا تقلقي بشأن أندرو ، يجب أن نحاول اعادته إلى الأسس التي كان يسير عليها في دراينفي . أليس كذلك ؟ »

الفصل التاسع والعشرون

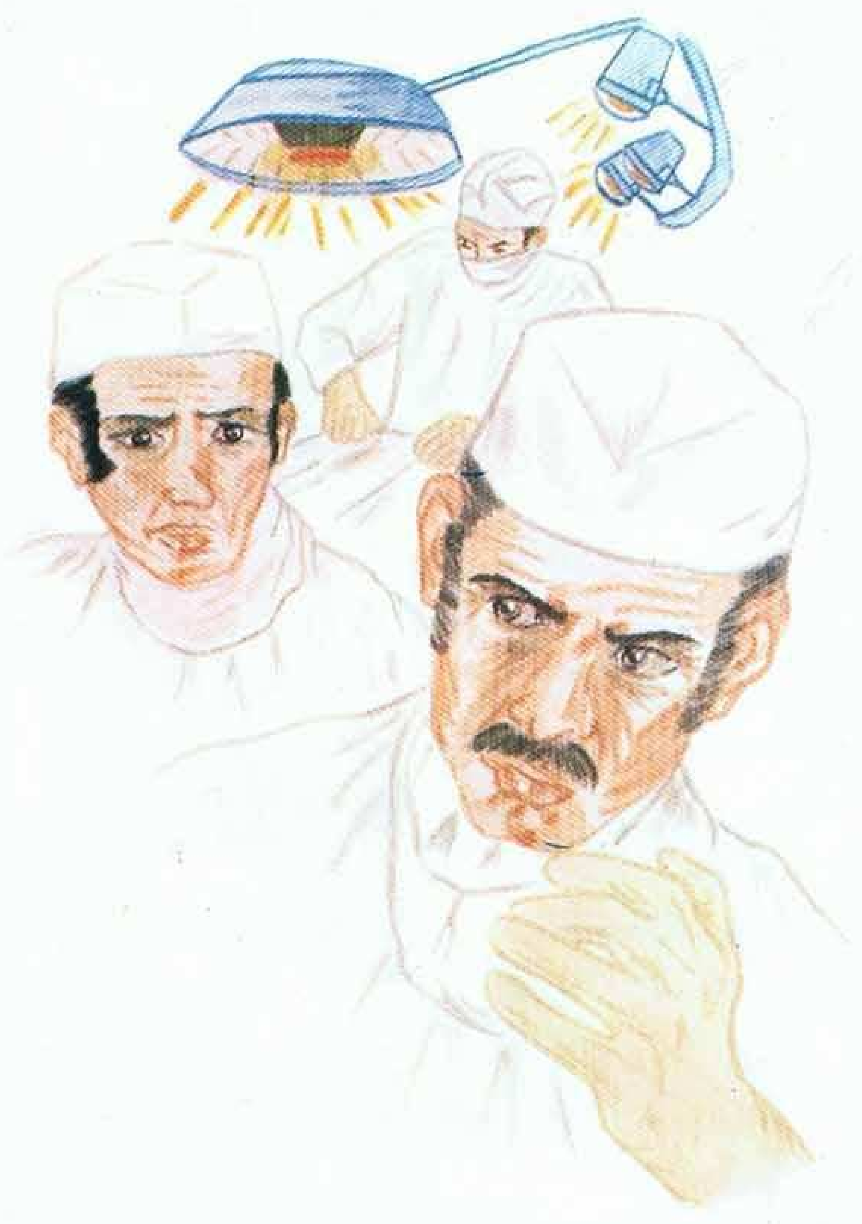
بعد زيارة « دني » بقليل طلبت امرأة تدعى السيدة ثورنتون من أندرو أن يأتي لمعالجة ابنتها سيبيل التي جرحت قدَمها . وعندما فحص أندرو قدَم المريضة ، قرر أن الحل الوحيد يكمن في اجراء جراحة بسيطة . ونصح السيدة ثورنتون قائلاً : « يجب اجراء العملية قبل أن تسوء حالتها . »

فأجابته قائلةً : « حسناً ، سأعمل بنصيحتك . آمل أن تُجري الترتيبات اللازمة . ولكن من تفضل أن يجري العملية ؟ »

وعجز أندرو لحظةً عن التفكير بأيّ كان ، ثم تذكر ايفوري فقال : « قد يجريها السيد ايفوري اذا لم يكن منشغلاً . »

عندما عاد أندرو إلى منزله ، هتف لإيفوري الذي كان لطيفاً للغاية . ففحص الفتاة ووافق على ضرورة اجراء عملية مستعجلة . وبعد يومين أجرى العملية في مستشفى الآنسة شيرنغتون .

حضر أندرو العملية لأن ايفوري اكّد على أهمية ذلك . وبعد اسبوعين ، عندما غادرت سيبيل المستشفى دعاه ايفوري



أندرو و « إيفوري » أثناء العملية ٧

إلى الغداء . وأثناء تناول الطعام اقترح عليه قائلاً : « دعْ عنك قضية أجرة العملية ، فبامكاني أن أحصّل أكثر منك . لقد سمعت أن ثراء آل ثورنتون واسع . » ثم توقف قليلاً وأضاف : « هناك أمر آخر ، ان لوزَتَيْ سيبيل في حالة سيئة . هل فحصتهما ؟ »

— « لا ، لم أفعل . »

— « أوه ، انها في حالة سيئة جداً ! أرجو ألا تنزعج لأنني تصرفت بحرية وأخبرت السيدة ثورنتون أنه يجب استئصال لوزتي سيبيل فور تحسّن الطقس . »

بعد انقضاء شهر تقريباً ، وبينما كان أندرو يتناول الشاي مع كريستين ، استلم رسالةً من ايفوري فيها شك بقيمة عشرين جنيهاً . فنظر أندرو إلى الشيك بدهشة ، اذ أنه لم يساعد ايفوري خلال العملية ! ثم ناول الشيك إلى كريستين وقال مبتسماً : « انه كرم بالغ يا كريس ، أليس كذلك »؟

فنظرت بحيرة وقالت : « ولكنني لا أفهم ، هل هذا دفعة من حسابك مع السيدة ثورنتون ؟ »

وضحك أندرو قائلاً : « لا . لا ! انما دفعة إضافية مقابل الوقت الذي أمضَيْتُهُ أثناء العملية . لقد حصلت على هذا لمجرد حضوري العملية ! »

عندئذٍ وضعت كريستين الشيك على الطاولة وقالت : « يبدو أنه مبلغ كبير لقاء لا شيء ! »

« ولمَ لا . قالَ ثورنتون أغنياء جداً ويمكنهم دفعُ ذلك بسهولة ! »

عندما خرج أندرو ، نظرت كريستين إلى الشيك ثانية ، اذ أنها لم تكن تعرف أن أندرو يعمل مع ايفوري ، وفجأة ، عاودتها الهموم . لقد بدا وكأن المال أصبح همه الوحيد ! فاغرورقت عيناها بالدموع وقررت أن تفاتحه بالموضوع .

وفي المساء سألته : « ما رأيك بنزهة الى الريف يوم الأحد؟ »

كان يومُ الاحد يوماً ربيعياً جميلاً فاتجها نحو قرية تبعد بضعة أميال عن لندن حيث تناولا غداءهما ، الذي أحضراه معهما ، قرب احدى الغابات .

وبينما جلسا تحت أشعة الشمس أخذت كريستين نفساً عميقاً وقالت : « إنني أودُّ ان أتحدَّث إليك يا حبيبي . ليس المالُ كلَّ شيء في حياة المرء ! أرجوك أن تصغي إلي ، أرجوك ! لقد تغيرت كثيراً يا أندرو ! حتى أن دني لاحظ ذلك . »

فصرخ أندرو : « ماذا فعلت الآن حتى أُلام ؟ »

— « انه سلوكك ككُلٍّ يا حبيبي ! لقد أخطأتَ بقبولك الشيك الذي أرسله ايفوري ! »

فتجمد أندرو وقال : « أخطأت ؟ ولمَ لا أقبله ؟ »

عندئذٍ صرخت كريستين قائلة : « أوه ، ألا تستطيع أن تفهم قصدي ؟ لقد اقترفت كل الاخطاء التي كنت تتحامل على الأطباء لاقترافها ! أوه ، يا أندرو لا تفقد احترام الذات ! »

وانفجرت باكية .

فنظر إليها أندرو بغضب وقال : « أوه ، كُفّي عن البكاء أيتها الحمقاء ! حاولي أن تساعديني بدلاً من أن تشتميني طوال اليوم ! ان كل ما أريده هو النجاح ! »

وفي نهاية الاسبوع ذهب أندرو لتناول الشاي مع السيدة لورانس التي بدت موافقة على كل تصرفاته ، وقالت له : « لماذا لا تستأجر حُجْرةً في هذه المنطقة من لندن ، وتجعل منها نواة للعيادة التي تتشوق إلى انشائها ؟ فالكثير من الأغنياء سيأتون لزيارتك ، إذا كان لديك غرفة استشارات في هذه المنطقة . »

بعد نصف ساعة ، وبينما كان أندرو يقود سيارته عائداً إلى منزله فكر باقتراح السيدة لورانس ووجد أن الفكرة جيدة ! ومن غير أن يخبر كريستين بما يجول في خاطره ، أخذ يبحث عن غرفة في الطرف الغربي من لندن . وبعد حوالي ستة أشهر وجد واحدة ، فقال لكريستين أثناء تناول الفطور : « قد يهمك أن تعرفي انني استأجرت غرفة في شارع ويلبك (حيث تكثر عيادات الأطباء الناجحين) وسأخصص عيادتي هذه لمعاينة المرضى غير الميسورين . أما الغرفة الجديدة في الطرف الغربي فسوف تكون للأغنياء منهم . »

الفصل الثلاثون

وجعلَتْهُ الغرفة الجديدة يشعر بالنصر ، وقدمت فرانسيس لورانس وفريدي هامسون اقتراحات حول أثاث الغرفة . كما وجد هامسون لأندرو ممرضة تدعى « شارب » كانت صديقة لممرضته ، وهي امرأة حادّة المزاج ولكنها قديرة .

وبدت الغرفة عندما انتهى العمل فيها فخمة جداً ، فقرر أندرو أن بإمكانه أن يتقاضى ثلاثة جنيهات على الأقل عن كل مريض .

كان عدد الذين جاءوا لاستشارته قليلاً في بادىء الامر . ولكن بعد اسبوع أو اثنين تدفق المرضى عليه كل يوم بأعداد هائلة .

وفي حزيران استأصل ايفوري لوزتي سيبيل ثورنتون ، ثم أرسل لأندرو شيكاً لقاء حضوره العملية .

إثر ذلك ، وفي أصيل أحد الايام ، دخلت سيدة متقدمة في السنّ ، غرفة الاستشارات لمقابلة أندرو. كانت تشكو من ألم في حنجرتها وكانت حالتها سهلة العلاج إلاّ أنه قرر ارسالها إلى هامسون لاستشارته في أفضل علاج لها ، فلقد أبدى له هامسون في الفترة الأخيرة وداً جعَلَهُ يرغب في منحه فرصة الحصول على ثلاثة جنيهات إضافية . وما هو إلا أسبوع أو اثنان حتى بادله هامسون الصنيع وأرسل له أحد مرضاه لمعاينته .

وحين رجع أندرو ذلك المساء إلى منزله فوجىء بأن

كريستين كانت متضايقة . ولقد بادرته قائلة : « لقد اتصلت بك السيدة لورانس ثانية ، ولم تترك رسالة ! »

فامتقع وقال : « ماذا تقصدين بقولك ثانية ؟ »

— « انها المرة الرابعة التي تهتف فيها إليك هذا الاسبوع ! »

— « حسناً ؟ وأيُّ بأسٍ في ذلك ؟ »

— « لا شيء ! أنا لم أقل شيئاً . »

كانت علاقته بكريستين تزداد سوءاً يوماً بعد يوم ، فأراد أن يعمل شيئاً لإسعادها. وهكذا استقلّ سيارته وذهب لمقابلة الآنسة كرامب في متجرها .

وعندما عاد دخل غرفة الجلوس ونادى كريستين : « تعالي لحظة يا كريس ! »

فحضرت على الفور ، فقال : « انظري يا حبيبتي ! لقد اشتريت لك هذا » ثم توقف فجأة وناولها العلبة .

وارتجفت يداها وهي تفتح العلبة ثم صرخت : « انه رائع ؛ فَرْو رائع ! » وانهمرت الدموع على وجنتيها ثم قالت : « انك تحبني فعلاً .. وهذا كل ما يهمني . »

— « طبعاً ، أحبك ، وسنخرج لنتناول العشاء الليلة » .

صحب أندرو كريستين إلى أحد أفخم مطاعم لندن . وعندما بدءا بتناول الطعام ضحك أندرو قائلاً : « لم يكن لدينا مثل هذا الطعام في درايفي ! »

كان أندرو مصمماً على جعل الجو مرحاً ، لكن كريستين

لم تكن مرحة فالقاعة كانت مكتظة ، وكان الحر شديداً والضوضاء تصمّ الآذان .

— « ما الخطب ؟ ألست مستمتعة ؟ »

فحاولت الابتسام وقالت : « أجل ، طبعاً . »

— « إنك لم تستمعي إلى كلمة واحدة من حديثي ، ولم تشربي النبيذ ! فعندما يصحب رجل زوجته خارج منزله ... »

ثم إنهما عادا إلى البيت وقد أمست علاقتهما أسوأ من ذي قبل . وشعرت كريستين بالتعاسة . بل انها بدأت تفقد ثقتها بنفسها . وبدأت تتساءل ما إذاكانت هي الزوجة المناسبة لأندرو .

لكن أندرو سرعان ما نسي هموم البيت في اليوم التالي . فقد قرأ في الصحيفة أن ريتشارد ستيلمان (وهو رجل يملك مستشفى في أميركا كان قد كتب يهنئه بتجاربه حول غبار الفحم) قد جاء إلى لندن وسينزل في احد فنادقها .

ولم يكن لستيلمان أي مؤهلات طبية . فبعد تخرجه من المدرسة بدأ بدراسة الطب في جامعة أميركية ، ولكن والده توفي قبل أن ينهي هو علومه ، تاركاً القليل من المال . ولكي يعيل والدته وشقيقته ترك ستيلمان الجامعة وراح يكسب قُوْته بالقيام ببعض الأعمال الحرة مستفيداً من أوقات فراغه لمتابعة دراسة الطب . وعندما جمع مبلغاً كافياً من المال عاد إلى مهنة الطب ، وبنى مستشفى لمعالجة أمراض الرئة . ولم يعترف به الأطباء الأميركيون بادىء الأمر لأنه لم يكن يحمل شهادة ،

لكنه سرعان ما حظي باحترامهم بعد أن نجح في معالجة عدد من المرضى كان الأطباء الآخرون قد يئسوا من حالتهم .

وأصرّ الأطباء الانجليز على عدم الاعتراف به ، بعكس أندرو الذي كان يكنّ له الاحترام البالغ . وهكذا كتب إليه على الفور ودعاه إلى تناول الغداء في المطعم الفاخر الذي دعا إليه كريستين .

وفي اليوم التالي ، هتف له ستيلمان : « دكتور مانسون ! انني راغب في تناول الغداء معك ، انما ليس في ذاك المطعم الذي أمقت ، تعالَ نتناول الغداء معاً في فندقي . »

ابتسم ستيلمان لأندرو في طريقة ودية ، عندما جلسا إلى طاولة هادئة في غرفة الطعام التابعة للفندق وقال له : « انه لجميل ان أكون في انكلترا ، فأنا أحب بلدكم . »

— « ما هو سبب زيارتك ؟ »

— « الواقع أني جئت لأؤسّس مستشفى صغيراً كمستشفاي في أميركا . انني أشيده على تلال تشيلتيرن الرائعة ، في الشمال الغربي من لندن . وسأهتم بأمراض الصدر بشكل رئيسي . »

وفارقَهُ أندرو وقد خالجه شعور حماسيّ غريب . لكنه عندما عاد إلى منزله وجد كريستين تقرأ الانجيل . ولسبب كان يجهله ، شعر بالانزعاج فصرخ قائلاً : « بحق السماء ! أليس لديك شيء أفضل تفعلينه ؟ »

— « ولكني اعتدت قراءة الانجيل قبل أن أعرفك . »

– « أوه ، حقاً ؟ دعيني أخبرك هذا : إنك حمقاء ! »

– « ربما ، لكنني أفضل أن أكون حمقاء وأحتفظ بكرامتي على أن أكون رجلاً ناجحاً دون كرامة ! وعلى أية حال ، ألا ترى أن من الخير أن أغيب عنك فترة قصيرة ؟ لقد دعتني السيدة فوغهان لتمضية اسبوعين أو ثلاثة عندها . »

– « أجل ، اذهبي ! اذهبي فوراً ! »

الفصل الحادي والثلاثون

ارتاح أندرو بادىء الامر لغياب كريستين . لكنه ما لبث أن بدأ يتساءل عما تفعله ويترقب عودتها . ورغم أنه أقنع نفسه أنه أصبح حراً الا أنه عانى من الوحدة تماماً كما حصل له في أبيرالو يوم ذهبت كريستين لزيارة عمتها .

واجتمع أندرو بإيفوري ، وفريدي ، وديدمان مرتين أو ثلاث ، كما ذهب إلى تلال شليترين لرؤية مستشفى ستيلمان الجديد . وأصبح هو وتشيلتيرن صديقين حميمين .

وذات يوم هتف أندرو لفرانسيس لورانس وسألها : « هل ترغبين في مرافقتي مساء الغد في نزهة إلى الريف حيث نتناول الشاي معاً ؟ »

– « سيكون ذلك لطيفاً جداً . »

وفي المساء التالي ، قاد أندرو السيارة إلى بلدة ريفية صغيرة ،

حيث تناولا العشاء في فندق قرب النهر .

وقالت فرانسيس : « لقد مضى على معرفتي بك فترة طويلة ، لكنها المرة الأولى التي تدعوني فيها للخروج معك . »

– « وهل أنت نادمة لذلك ؟ »

فابتسمت .

– « هل يعرف زوجك أننا ..؟ »

فنظرت إليه وقالت : « ألا تفهم ؟ أنا وجاك صديقان حميمان ! ولكننا ... » ثم توقفت فجأة وقالت : « تعال نرقص . »

وشعر أندرو بالابتهاج وهو يراقصها .

ثم سارا نحو النهر ، وجلسا على مقعد وراحت فرانسيس تنظر إلى ضوء القمر المنعكس على سطح الماء وتقول : « ما أجمل هذه الأمسية ! »

فقبّل أندرو شفتيها الدافئتين .

وسرعان ما شعر بالارتباك والحرج . وأراد أن يضمها إلى صدره ثانيةً ، ولكن طيف كريستين المتعَبة ووجهها الحزين ظهرا له من خلال الماء، مما أثار قلقه. وأخيراً قالت له فرانسيس : « والآن آن لنا يا دكتور أن نعود إلى البيت . »

وعادا صامتين . ولم يكن أندرو سعيداً، فقد كره نفسه، وحاول طرد كريستين من ذهنه لكنه لم يستطع . وعندما وصلا إلى منزل السيدة لورانس ، نزل من السيارة وفتح لها الباب دون

أن يتفوّه بكلمة .

فدعته قائلةً : « ادخل . »

وتردد ثم قال : « الوقت متأخر ، أليس كذلك ؟ »

فدخلتِ المنزل دون أن تجيب ولحق هو بها .

وبعد ثلاثة أيام جلس أندرو في غرفة الاستشارات وقد غلب عليه الشعور بالتعب والتعاسة .

وفجأة ، دخلت الممرضة شارب وقالت : « هناك رجل زريّ المظهر يدعى بولاند يريد مقابلتك . »

— « بولاند ؟ كون بولاند ؟ أدخليه فوراً ! »

— « لكن هناك مريضاً ينتظر مقابلتك ... »

فصرخ أندرو : « دعك منه ! وافعلي ما أقول ! »

فرمقته بنظرة حادة ثم خرجت . وبعد دقيقة أدخلت بولاند إلى الغرفة فصاح أندرو : « أهلاً بك يا كون ! »

وهتف كون : « مرحباً ! مرحباً! أوه، كم هو لطيف أن أراك ثانية ! انك تبدو رائعاً !وانها لعيادة راقية ! » ثم نظر إلى الممرضة التي كانت تراقبه باحتقار وقال : « لقد رفضت ممرضتك السماح لي بالدخول في بادىء الامر ! » .

فاستدارت الممرضة وخرجت من الغرفة .

وما إن انصرفت حتى تغيّر سلوك كون وقال :

« اسمع يا مانسون، لقد سعيت لمقابلتك بسبب ابنتي ماري، انها مريضة . ولقد تولى لويلن معاينتها ... ولكن ، حسناً إنه

طبيب فاشل . ولقد زعم أن ماري مسلولة ، ولا أمل في شفائها . اسمع يا مانسون ، هل تؤدي لي خدمة ؟ انني أعرف انك الآن طبيب ناجح . ولكن ... هل تفحص ماري ؟ إن ثقتي بك كبيرة وكذلك ثقتُها . »

— « سأفعل كل ما في وسعي من أجلها ! » .

وفي تلك اللحظة دخلت الممرضة شارب وأبلغت أندرو :

« هناك خمسة مرضى بانتظارك يا دكتور مانسون . »

لكن أندرو لم ينتبه لذلك، بل تابع حديثه مع «كون» ودعاه إلى تمضية بضعة أيام في ضيافته . وقبل «كون» الدعوة بسرور .

وساعدت روح «كون» المرحة أندرو على نسيان متاعبه مع كريستين . وعندما عادت ، يوم الجمعة ، اصطحب أندرو « كون » إلى محطة السكك الحديدية لملاقاتها . فلقد كان خائفاً من ملاقاتها بمفرده بعد كل الذي حصل ...

وما إن نزلت كريستين من الحافلة حتى هتف أندرو فرحاً :

« مرحباً يا كريس ! انظري مَنْ هنا ؟ «كون» ، انه باقٍ معنا يا كريس ! هل استمتعت هناك ؟ »

دهشت كريستين لهذا الاستقبال الحار ، فقد كانت تخشى ألاّ يكون هناك استقبال على الاطلاق ! وأخذت تتحدث بحماسة فيما جلست في المقعد الخلفي من السيارة مع « كون » .

وما إن وصلوا إلى البيت حتى أخذت نفساً عميقاً وقالت :

« أوه ، كم أنا سعيدة بعودتي إلى البيت ! هل افتقدتني يـــا أندرو ؟ »

— «كثيــراً . »

وبعد قليل قال أندرو إن عليه عيادة مريض ، وأسرع خارجاً من البيت . وما إن أصبح في سيارته حتّى قال لنفسه : « شكراً لله ! انني متأكد من أنها لم تشكّ بأمر فرانسيس . وهذا هو المهم الآن . »

وبينما كان أندرو خارج المنزل ، طال حديث «كون» مع كريستين عن صحة ماري . فبدت كريستين قلقة ونصحت «كون» بأن يبرق لماري طالباً منها الحضور إلى لندن فوراً .

وفي اليوم التالي صُدم أندرو حين رأى وجهها وجسمها النحيلين . وعلى الفور أمرها بالاستلقاء على السرير وفحص صدرها . وبعد خمس عشرة دقيقة ، عاد إلى غرفة الجلوس والقلق بادٍ على وجهه . ثم قال : « أخشى أن يكون لويلين على حق يا كون . فماري مصابة بالسل ، ولكن لا تقلق فالمرض ما يزال في بدايته . »

— « هل تعني ... أن شفاءها ممكن ؟ »

— « أجل ، انما يجب أن تدخل المستشفى لإخضاعها لمعالجة خاصة . فقد أجرى طبيب في مستشفى فيكتوريا هو الدكتور ثوروغود ، دراسةً خاصة عن هذا المرض ، وسوف أطلب منه أن يعالجها . واذا ما دخلت مستشفاي فانني سأراقب تطور حالتهــا . »

فقال كون : « أنت مثال الصديق الوفي يا أندرو ! »

وبعد ظهر السبت ، أُدخلت ماري إلى مستشفى فيكتوريا فيما عاد « كون » إلى أبيرالو .

وإثر ذهابه قال أندرو لكريستين : «كم هو جميل أن نكون معاً ثانيةً يا كريس ! »

لقد بدا صادقاً ؛ ولكنْ ، لسببٍ ما ، لم تصدّقــه كريستين . وصعدت إلى حجرة نومها في الطابق العلوي حيث خاطبت نفسها قائلة : « أوه ، يا إلهي . متى وكيف سينتهي كل هــذا ؟ »

الفصل الثاني والثلاثون

وأخيراً تحقق طموح أندرو إلى النجاح والثروة . فعيادته كانت تنمو كل اسبوع ، وعلاقاته المهنية مع هامسون وإيفوري كانت وطيدة ، تدرّ عليه الكثير من المال . كذلك كان ديدمان يبعث إليه بالزبائن . والآن ، عرض عليه « لي روي » الذي يملك مصنعاً كبيراً لصنع المواد الغذائية أن يكون المستشار الطبي لشركته . فشعر أندرو ازاء كل هذا أنه قوي ، وباتَ يظن أنه معصومٌ عن الخطأ .

وفجأة، ودون سابق انذار ، تغير مجرى حياته .

ففي احدى أمسيات تشرين الثاني حضرت إلى منزله زوجة إسكاف تدعى السيدة فيدلير وكانت امرأةً مرِحةً قصيرةَ القامة ،

في خريف العمر وسألته أن يعود زوجَها المريضَ منذ عدة أسابيع .

وعندما عاده أندرو في الصباح التالي ، وجده طريح الفراش يعاني من ألم في معدته . ففحصه ووجد أن حالته رغم عدم خطورتها تستدعي إجراء جراحة فورية . وشرح الامر لآل فيدلير ، الذين طلبوا منه اختيار جراح ماهر لاجراء العملية في مستشفى متواضــع .

وفي ذلك المساء هتف أندرو لإيفوري وقال له : « أريدك أن تجري جراحة في المعدة يا ايفوري . والمريض اسكافٌ فقير ، وسأكون شاكراً ان اكتفيتَ هذه المرة بجزء من أتعابك . »

كان ايفوري لطيفاً ، وبحث الحالة مع أندرو بضعَ دقائق .

ثم هتف أندرو للسيدة فيدلير قائلاً : « إن السيد ايفوري ، وهو جراح من الطرف الغربي ، قد وافق على اجراء العملية لقاء ثلاثين جنيهاً ، رغم ان أجره العادي هو مئة جنيه . وأظن أن هذا مُرضٍ جداً . »

فأجابت بصوت قلق : « أجل يا دكتور . وإنه لَلُطفٌ بالغٌ منك أن تُعْنى بترتيب هذا الامر . سنؤمن المال بطريقة ما . »

وبعد عدة أيام ، أجرى ايفوري العملية في مستوصف خاص . وبدا فيدلير مرحاً . وقبل أن يُخدَّر قال لأندرو : « سوف أشعر بتحسن بعد العملية . » ثم فقد وعيه .

أخذ ايفوري المشرط ، وفتح شقاً كبيراً في معدة فيدلير . وعلى الفور برز كيس لحمي أشبه بكرة رطبة يحوي موادَّ سامة .

كان هذا الكيس هو المسؤول عن آلام فيدلير ، فحاول ايفوري الامساك به لاستئصاله من معدة فيدلير ، لكنه كان ينزلق دائماً . ولقد أعاد الكَرَّة عشرين مرة ولكن من غير جدوى .

عندئذٍ نظر أندرو إلى ايفوري بانزعاج وهو يفكر : « ماذا يفعل هذا الرجل ؟ لماذا يجد الامر بهذه الصعوبة ؟ » وفجأة تذكر انها كانت أول عملية في المعدة يجريها ايفوري لأحد مرضاه . فاقترب من طاولة العمليات ولاحظ أن الاضطراب لم يَبْدُ على أحد سواه . فايفوري ، وطبيب التخدير ، والممرضات كانوا جميعاً هادئين . ولكن ، لسبب ما كان أندرو قلقاً .

وأخيراً ، أوقف ايفوري محاولاته ، وأحدث ثقباً بالكيس نفسه الذي انفجر على الفور وقذف بالمواد السامة إلى جرح المعدة.

فنظر أندرو بدهشة واشمئزاز ، إلاّ أن ايفوري لم يكن قلقاً . ونظف الجرح من السموم، ثم حاول عبثاً أن يُوقف النزيف . فشعر أندرو بموجة من الغضب وقال لنفسه : « بحق السماء ، ان هذا الرجل ليس جراحاً ! »

وهنا قال الطبيب الآخر بصوت هادىء : « أظن أنـه مشرف على الموت يا ايفوري . »

فلم يُجبْ ايفوري ولم يبدُ عليه أنه سمع .

ثم قال الطبيب الآخر : « أجل ، لقد مات الآن . »

فألقى ايفوري بأدواته وقال : « مسكين ! لا شك أن صدمة العملية قد قضت عليه . »

كان أندرو عاجزاً عن الكلام . وفجأة تذكر السيدة فيدلير التي كانت تنتظر في الطابق السفلي . وقرأ ايفوري أفكاره وقال : « لا تقلق يا مانسون ، سأتولى إبلاغ السيدة القصيرة ذلك نيابةً عنك . تعالَ معي . »

وتبعه أندرو إلى الطابق السفلي وهناك قال ايفوري وهو يربت برفق على كتف السيدة فيدلير : « أخشى يا سيدتي أن يكون لدينا أنباء سيئة نحملها إليكِ . فزوجك المسكين رغم كل ما فعلناه من أجله ... »

فشحب لونها وهمست قائلة : « هاري ! »

وأضاف ايفوري بحزن : « لم يكن باستطاعة أحد انقاذه ، حتى إنه لو عاش ... »

فنظرت إليه وقالتْ : « لقد فهمت . شكراً لله يا دكتور ، فقد كنت لطيفاً جداً . » ثم أجهشت بالبكاء .

فقال ايفوري : « تشجعي ! »

ثم غادر الغرفة يتبعه أندرو .

عندئذ قال ايفوري ببرود : « ما حصل قد حصل ! انني متأسف يا مانسون ، كما انني لم أتوقع الذي حدث . بالطبع لم يمتْ الرجل أثناء العملية فقد أنهيت عملي قبل أن يموت . اذاً ، ليس هناك ما يدعو للقلق ، ولن يكون هناك أي داعٍ لاجراء تحقيق . »

فصرخ أندرو وهو يرتجف غضباً : « أوه ، اخرس !

لقد قتلته ! لست جراحاً ! أنت لم تكن جراحاً ولن تكون أبـــداً ! »

ورمقه ايفوري بنظرة قاسية وقال : « انني أنصحك بألاّ تكلمني بهذه اللهجة يا مانسون ! »

— « انها الحقيقة ! أوه ، يا إلهي لماذا وثقت بك ، لماذا ؟ »

— « اخرس أيها الاحمق ! »

فقال أندرو وقد أعماه الغضب : « انك تعلم أنها الحقيقة . لقد أجريت العملية بطريقة سيئة كمن يقترف جريمة ! »

وبدا وكأنّ ايفوري سينهال عليه ضرباً . لكنه تمالك أعصابه بجهد كبير وغادر الغرفة .

وعلى الأثر ، عاد أندرو إلى منزله مُنْفَطِر القلب ، مُوْجَع الرأس . لقد وصل في موعد المعاينات المسائية فوجد جمعاً كبيراً بانتظاره . فنظر إليهم وقال لنفسه : « الوجوه الغبية نفسُها ! ومعظمهم لا يشكون من شيء ! »

ثم دخل إلى غرفته وبدأ أعماله . وحاول أن يتصرف بلطف كعادته ، فأخذ يحادث كل مريض بتهذيب ، ثم يوضح لكريستين أي دواء تعطيه . وبعد الفراغ من المعاينات ، جلس يجري حساباته ، كعادته كل مساء ، لكنه لم يستطع التفكير بوضـــوح .

وسألته كريستين : « حسناً ، كم جنيتَ اليوم ؟ »

ولم يجب ، بل لم يستطع الاجابة . وعندما خرجت من

الغرفة جلس بهدوء تام ، كمن يحلم وأخذ يكرر القول لنفسه : « أوه ، يا إلهي ماذا فعلت ؟ ماذا فعلت ؟ » وفجأة ، لمح الكيس الذي وضع فيه ما جناه ذاك اليوم من مال . فانتابته موجة غضب ، وإذا به يرمي بالكيس في أرض الغرفة . ثم يقفز عن كرسيّه . لقد كان محموماً ، ولم يكن في ميسوره أن يتنفّس بسهولة. فهُرِع إلى الجانب الخلفيّ من المنزل وقد استبدّ به الغثيان .

الفصل الثالث والثلاثون

لم يغمض لأندرو تلك الليلةَ جَفْنٌ . وفي الصباح استشعر وكأنه محطَّم فلم يتناول فطوره واكتفى بفنجان من القهوة .

وكانت ماري بولاند أول ما خطر له . فأخرج سيارته وقادها إلى مستشفى فيكتوريا لمعاينتها .

وما إن دخل عليها حتى بادرته قائلة : « صباح الخير . أليست زهوري جميلة ؟ لقد أحضرتها كريستين أمس . »

وجلس أندرو على سريرها وأخذ ينظر إليها . لقد زاد هُزالها ! ثم قال : « أجل ، انها زهور جميلة . كيف تشعرين يا ماري ؟ » فقالت : « سأكون بفضلك احسن ! »

ان شدة ثقتها به زادت من بؤسه فقال بينه وبين نفسه : « إذا ما أصيبت ماري بمكروه فلن أغفر ذلك لنفسي أبد الدهر . »

وفي تلك اللحظة دخل الدكتور ثوروغود وقال بمرح : « صباح الخير يا مانسون . ما بك ؟ هل أنت مريض ؟ »

فنهض أندرو قائلاً : « انني بأحسن حال ، شكراً . »

عندئذ رمقه ثوروغود بنظرة غريبة ثم التفت إلى ماري . وفحصاها معاً . واتجه إلى احدى زوايا الغرفة حيث يصعب سماع حديثهما وبحثا حالتها .

وقال أندرو : « يبدو لي أن تحسنها ليس مُرضياً البتة . »

ففرك ثوروغود يديه وقال : « لست أدري ، يا مانسون . »

— « لقد ارتفعت حرارتها . »

— « أجل ، ولكن ... »

— « ان هذه الحالة تهمني كثيراً ، ولا أريد التدخل ، ولكنني أظن أنه ينبغي أن تجري لها عملية في الرئتين ولقد اقترحتُ ذلك منذ وصولها إلى المستشفى . »

فانزعج ثوروغود وقال : « آسف يا مانسون أن لا أشاطرك الرأي ، وأرجو أن تسمح لي بمعالجة هذه الحالة بالطريقة التي أجدها أنا مناسبة . »

لم يقوَ أندرو على المناقشة لشدة ضعفه . وعاد إلى ماري ليخبرها أنه سيعودها ثانية في اليوم التالي . ثم غادر المستشفى .

وحوالي الساعة الواحدة ذهب أندرو إلى مطعم متواضع حيث اكتفى بشرب فنجان ثان من القهوة دون تناول أيّ طعام . ثم اتّجه إلى غرفة الاستشارات في شارع ويلبيك .

كان أول مرضاه شاباً معتلّ القلب . ففحصه أندرو بدقة ، ثم طرح عليه عدة أسئلة قبل أن يقرر العلاج المناسب . وعندما حاول الشاب أن يدفع له أتعابه سارع أندرو إلى القول :

« أرجوك ، لا تدفع لي الآن ، أنتظر حتى أرسل لك فاتورتي . »

وكان في مجرّد تفكيره بأنه لن يُرسل له فاتورة وبأنّه قد فقد الرغبة في المال ما جعله يشعر بارتياح غريب .

أما ثاني مرضاه فقد كانت الآنسة باسدن ، وهي ثرية في الخامسة والأربعين اعتادت زيارة أندرو بين الفينة والاخرى . فحدّثته وهي تبتسم حديثَ آلامها الوهمية . فاعترضها أندرو قائلاً : « لماذا تأتين إليّ يا آنسة باسدن ؟ »

فحاولت أن تجيب ولكنها توقفت في منتصف الجملة ونظرت إليه بدهش ، فقال : « أوه ، انني أعرف انني أنا الملُوم ، فقد طلبت إليك المجيء ، لكنك لا تشكين من شيء . »

— « دكتور مانسون ! »

— « انني آسف ، فلن أجديك نفعاً يا آنسة باسدن ، غير أنني متأكد من وجود الكثير من الأطباء في هذه المنطقة الذين سيسرون بابلاغك أنك مريضة واعطائك علاجات غالية . »

وكان أندرو على وشك الذهاب إلى منزله عندما دخلت عليه الممرضة شارب وهي تبتسم قائلة : « لقد جاء الدكتور هامسون لمقابلتك ؟ »

إثر ذلك دخل فريدي الذي كان لطيفاً أكثر من عادته وقال : « اسمع يا مانسون ، لقد علمت بأمر تلك العملية أمس وأظنك مُحِقّاً في شتم ايفوري . انه لأمر مخجل ! في الحقيقة انني منزعج من ايفوري وديدمان على حد سواء . فلقد كنا نعمل معاً وكان كل منا يرسل المرضى للآخر ، لكنهما لم يدفعا

لي حصة عادلة من المال . انهما محتالان ! وبمقدوري كذلك أن أخبرك الكثير عنهما ! والآن لديّ فكرة ! فلنعملْ معاً دون ايفوري وديدمان ، إذ لسنا بحاجة إليهما وانني أعرف كل الألاعيب ، ومختلف أساليب الحصول على المال . هذا بالاضافة إلى أنك طبيب ماهر . وهكذا نجمع ثروة طائلة . »

ولم ينبس أندرو ببنت شفة . انه لم يشعر بالغضب تجاه هامسون بل حقد على نفسه . وأخيراً قال : « آسف ، أنا لا أستطيع العملَ معك يا فريدي . فلقد ضقْتُ ذَرْعاً بكل هذا ! وهنالك الكثير من الأطباء الذين لا همّ لهم إلاّ جمعُ المال . »

فامتقع هامسون وقفز قائلاً : « ماذا ؟ ... هل جُننت ؟ »

— « ربما ، لكنني سأكفّ عن التفكير بالمال والنجاح . فعلى الطبيب أن لا يحاول استغلالَ المرضى لجمع المال ! »

ثم نهض وعاد إلى منزله .

كانت كريستين في غرفة الجلوس . وعندما دخل عليها أندرو ارتجف لمنظر وجهها الشاحبِ الحزينِ فبادرته قائلةً : « لقد أمضيتَ يوماً مشحوناً بالعمل ، فهل تشربُ بعضَ الشاي قبلَ الذّهاب إلى العيادة ؟ »

فأجابها : « لن أذهب إلى العيادة الليلة . »

فنظرت إليه بدهشة وقالت : « ولكن اليوم السبت ، أكثر لياليك انشغالاً ! »

لكنه لم يجبها .

— « لماذا ، ما الخطب ؟ »

فرمقها بنظرة وقال : « كريستين ! » ثم هُرِع إليها وجثا على قدميها باكياً .

الفصل الرابع والثلاثون

كانت تلك أجمل لحظة عرفاها منذ أحبّ أحدهما الآخر . وفي الصباح التالي الذي كان يوم أحد ، استلقى أندرو على السرير بجانب كريستين وأخذ يبثها لواعج قلبه ، تماماً كما كان يفعل في ابيرالو .

– « لماذا فعلتُ ذلك ؟ هل جُننتُ يا كريس ؟ أوه ، انني آسف يا كريس ! »

فابتسمت ابتسامةً نابعةً من قلبها .

ثم تابع أندرو قائلاً : « حسناً ، يجب أن نغادر هذا المكان الآن .... ونبيع العيادة . أوه ، لديّ فكرة ممتازة يا كريس . »

– « وما هي يا حبيبي ؟ »

– « أن انضمّ إلى « دني » و « هوب » ! فكل منا مختص في حقل يختلف عن اختصاص الآخر . وبذلك يكون باستطاعتنا العمل معاً واعطاء نتيجة ذات شأن ، أعني عملاً شريفاً ، لا كسْبَ المال فقط . أنا « ودني » متفقان على أن الطبيب الذي عمل بمفرده كثيراً ما يقع في الخطأ ، أي أنه قد يعلم الكثير عن

أحد المواضيع بينما يعلم القليل عن غيرها . وإذا ما عملنا نحن الثلاثة معاً يصبح بامكاننا أن نتبادل المعلومات ، وأن نقدّم خدمات طبّيةً فعالة إلى مرضانا . فـ « دني » جراح يمكنه أن يتولى اجراء العمليات . وأنا بامكاني أن أتولى أعمال العيادة بشكل عام . فيما يتولى « هوب » اجراء التجارب العلمية وتقديمَ النصح لنا لحل مشاكلنا . »

فنظرت إليه كريستين بعينين مشرقتين وقالت : « أوه ، انه لرائع أن أسمعك تقول هذا ! أوه ، كم أنا سعيدة ! »

وتابع أندرو حديثه بحماسة : « أعتقد أن هوب ودني سينضمان إليّ » .

ثم قفز من سريره وأخذ يتمشى في الغرفة ذهاباً وإياباً ، لكنه توقف فجأة وقال : « اسمعي يا كريس ! هناك أمر هام يجب أن أفعله فوراً . فأنا قلق بشأن ماري بولاند اذ أنها لم تتحسن صحتها في مستشفى فيكتوريا ، وثوروغود لا يفهم حالتها . يجب أن أخرجها من هذا المستشفى لأدخلها إلى مستشفى ستيلمان ! »

– « مستشفى ستيلمان ؟ »

– « أجل ، انه أفضل مستشفى رأيته في حياتي . واني مزمعٌ على الذهاب إليه اليوم لأُقنعه بإدخال ماري . هل تأتين معي ؟ »

فأجابته قائلة : « سنذهب حالما تصبح جاهزاً ! »

وما إن ارتدى أندرو ثيابه حتى نزل إلى الطابق السفلي وكتب رسائل مُطَوَّلة إلى كلٍ من « دني » و « هوب » . ثم

إنه ذهب وكريستين بالسيارة إلى تلال تشيلترين ، فوصلا إلى المستشفى في الثالثة ، وهناك استقبلهما ستيلمان استقبالاً حاراً ورافقهما في جولة في أرجاء المستشفى الذي حوى رغم صغر مساحته كلّ التحسينات الحديثة وأسباب الراحة .

بعد ذلك ، تناول الشاي مع ستيلمان حيث أفصحَ أندرو عن رغبته قائلاً : « اني أطلب منك خدمة يا ستيلمان . هل تتولى عني أمر فتاة مصابة بالسل في مراحله الأولى ؟ انها ابنة صديق لي لم تُحرز صحتُها أيّ تحسن في مستشفى فيكتوريا . »

فابتسم ستيلمان وقال : « طبعاً انك لا تريد أن ترسل إليّ مريضاً ! فالأطباء الانكليز لا يعترفون بي ! تذكّر أنني لا أتمتّع بأيّ مؤهلات طبية ولستُ أهلاً للثقة ! »

ولم يبتسم أندرو بل قال : « أرجوك... لا تمزح يا سيد ستيلمان فأنا جادّ ! كما أنني قلق بشأن هذه الفتاة . »

— « أخشى ألاّ يكون هناك سرير شاغر يا صديقي . وفي الحقيقة لديّ لائحةٌ بأسماء نساء ما زلن ينتظرن دورهنّ في الدخول . فبالرغم من أن الاطباء لا يحبونني ، فإن بعض الناس.. »

فقاطعه أندرو قائلاً : « ولكنني اعتمدت عليك ، واذا ما قبلْتَ ماري فسأرتاح كثيراً ، إذ أنها لن تتحسن حيث هي . »

فانحنى ستيلمان إلى الأمام وتناول قطعة من الكعك ثم قال : « اراك قلقاً بحقّ . حسناً ، سأساعدك ، أحضر لي ماري يوم الاربعاء القادم وسأجد لها سريراً . كما أنني سأبذل غاية جهدي لإنقاذها . »

الفصل الخامس والثلاثون

نهض أندرو باكراً ذاك الصباح بعد أن نام نوماً هادئاً . لقد استشعرَ نشاطاً بالغاً واستعداداً لكل شيء . واتجه مباشرة إلى الهاتف وطلب من احدى الوكالات الطبية أن تتولى أمر بيع عيادته قائلاً : « آمل أن تباع بثمن عادل . كما انني لن أقبل بنساً واحداً زيادة عما تساويه . فالناس في هذه المنطقة ليسوا أثرياء ، ثم إن الطبيب الذي سيخلفني قد لا يحرزُ النجاحَ الذي أحرزْتُ . »

وأثناء الغداء سلّمته كريستين برقيتين جوابيتين من « دني » و « هوب » . وجاء في برقية دني ما يلي : « مُهتمّ . انتظرني مساء الغد . » كما عبرت برقية هوب عن الاهتمام رغم أن كلماته دلت على روحه المرحة .

وبعد الغداء قاد أندرو سيارته إلى مستشفى فيكتوريا ليعاين ماري بولاند . وبينما كان جالساً على سرير ماري ، أخبرها بالترتيبات الجديدة التي قام بها قائلاً : « ستحبّين المستشفى الآخرَ أكثر ، أكثرَ بكثير يا ماري . والآن ، وبما أنني لا أرغبُ في حصول مشاكل هنا ، أريدك أن تتظاهري بأنك أنت التي ترغبين في مغادرة هذا المكان . قولي إنك تريدين العودة إلى البيت ويوم الاربعاء سأمرُّ وآخذك بسيارتي إلى مستشفى ستيلمان . »

عاد أندرو إلى منزله شاعراً بأنه قد بدأ بتصحيح أخطائه . وفي المساء ، ذهب إلى العيادة حيث فصل المرضى الحقيقيين عن الذين يتوهمون المرض . وأخذ يكرر لهؤلاء الأخيرين قوله

بحزم : « يجب أن تكون هذه زيارتكم الاخيرة . لقد تحسنتم الآن . ولن يجديكم دوائي أي نفع بعد الآن ! »

كان لهذا تأثير مدهش أدى إلى إراحة أندرو . وعندما خرج من العيادة ليعود إلى كريستين شعر بمثل ما كان يشعر به قبل بضع سنين من حيوية ونشاط .

وفي تلك اللحظة ، رن جرس الهاتف فأجابت كريستين . وعندما عادت إلى أندرو بدا عليها القلق وقالت : « هناك شخص يريد التحدث إليك . »

وفجأة ادرك أندرو أنها فرانسيس لورانس فقال : « من ؟ قولي لها انني خرجت . لا ، لاتقولي لها ذلك ! » ثم سار بسرعة وأضاف : « سأكلمها بنفسي . »

رجع أندرو بعد خمس دقائق وقال : « وهذا أيضاً انتهى ! لن أراها ثانية ! »

فابتسمت كريستين بارتياح دون أن تجيب .

وفي المساء التالي حضر « دني » إلى العشاء ، حاملاً رسالة من هوب يعتذر فيها عن عدم الحضور لارتباطه بموعد آخر . وقال دني وهو ينفض رماد غليونه : « يقول ان لديه عملاً . ولكنني أظن أن لديه موعداً مع امرأة شابة . ولن أفاجأ اذا ما قرر صديقنا هوب الزواج من هذه المرأة . »

فسأله أندرو بسرعة : « هل ذكر شيئاً حول فكرتي ؟ »

— «أجل ، انه مهتم ، وكذلك أنا . كما أنني دهشت من أن يستطيع رجل بمثل ذكائك التفكير بهذه الخطة الرائعة ! أخبرني عنها . »

عندها تولى أندرو شرح الخطة بحماسة بالغة . ثم بدأ مناقشة التفاصيل العملية . فقال دني : « يتوجب علينا في رأيي اختيار مدينة يناهز عدد سكانها العشرين ألف نسمة ، كأن تكون مدينة صناعية مثلاً ، حيث يتنافس في العمل أربعة أطباء أو خمسة . ففي مثل هذه المدينة ستتاح لنا فرصة رائعة لاظهار فعالية التعاون بين أطباء مختلفي الاختصاص . وقد يعادينا الكثيرون بادىء الأمر ، لكننا سننجح في النهاية . وربما تمكنّا بعد زمن من امتلاك مستشفىً خاصٍ بنا . أجل إنها فكرةٌ جيدة . » وفجأةً ، تنبهَ إلى نظراتِ كريستين إليه فابتسم قائلاً : « وما هو رأيك في الموضوع يا سيدتي ؟ جنونيّ أليس كذلك ؟ »

وأجابته كريستين : « أجل ، انما أحياناً تكون الاشيـاء الجنونية هي الافضل ! »

فصرخ أندرو وهو يضرب الطاولة بقبضة يده : « انك على حق يا كريس ! ويجب أن يكونَ هدفُنا وضعَ مثال للعيادة الطبية ! »

واستغرقوا في الحديث حتى ساعة متأخرة إلى درجة أن دني لم يتمكن من اللحاق بآخر قطار . مما اضطره إلى قضاء ليلتهِ مع أندرو وكريستين .

في الاربعاء التالي ، وفيما كان طبيب يدعى لوري على وشك أن يشتري العيادة ذهب أندرو إلى مستشفى فيكتوريا ليُخرج ماري بولاند . وسار كل شيء حسبَ الخطة . فلم يلْفَ أي معارضة لخروج ماري من المستشفى . وفي الثانية وصلَ أندرو برفقة الممرضة « شارب » لاصطحاب ماري .

كانت الممرضة شارب عصبية المزاج إذ أن أندرو كان قد أخبرها لتوه أنه قرر اغلاق غرفة الاستشارات في شارع ويلبيك. كما انه أعطاها مهلة شهر كانذار . وجلست الآنسة شارب مع ماري في المقعد الخلفي للسيارة دون أن تنبس ببنت شفة طوال الرحلة ، حتى أن أندرو تمنى لو انه لم يحضر معه تلك الممرضة العصبية الكثيرة الشكوك .

ثم وصلوا إلى مستشفى ستيلمان في الثالثة والنصف . وما إن استلقت ماري على فراشها حتى دخل ستيلمان الغرفة ليفحصها . وعندما دخل برفقة أندرو فوجئت الممرضة شارب وبدا عليها الانزعاج . وفحص ستيلمان ماري بدقة بالغة ، ثم خرج مع أندرو ثانية وقال له : « إنها جد مريضة . يجب أن أجري لرئتها عملية فورية . ولقد كان من الواجب إجراء هذه العملية منذ عدة أسابيع ! »

وبينما كان ستيلمان يستعد للعملية ، رجع أندرو إلى ماري ليخبرها بالقرار . ثم أضاف مُحاولاً أن يهدأ من روعها : « ليس من داعٍ للقلق يا ماري ، فلن تشعري بأيّ ألم . كما انني سأكون في الغرفة وسأسهر على صحتك . »

وما هي إلا عشر دقائق حتى بدأ ستيلمان العملية . لقد عمل بسرعة ، وبمهارة فائقة ، مستخدماً عدة أفكار جديدة كان قد اكتشفها في أميركا . وراقبه أندرو بإعجاب كبير ، إذ لم يَسْبِقْ له أن شاهد عملية تُجرَى بهذه المهارة .

وعندما انتهت العملية ، وأعيدت ماري إلى سريرها ،

ذهب أندرو لرؤيتها وسألها : « ألستِ أسعدَ الآن ؟ »

فابتسمت قائلة : « لقد كنتَ على حق ، فالأمرُ لا يدعو للقلـــق ! »

— « كل ما تحتاجينه الآن هو الراحة . وعما قريب ستصبحين بخير من جديد ، وستشفين تماماً ! »

الفصل السادس والثلاثون

كانت الساعةُ تقاربُ السابعةَ عندما غادر أندرو مستشفى ستيلمان . لقد شعر براحة الضميرِ تجاه ماري . وأدرك أن أطباء آخرينَ قد يشكّون في تصرفه ، لكنه لم يكترث ، فقد فعل الافضل بالنسبة للفتاة ، وهذا هو كل همه .

وقاد سيارته ببطء مستمتعاً بسكون الليل ، بينما جلست الممرضةُ شارب في المقعد الخلفي صامتةً . حتى إذا دخلا لندن أوصلها أندرو إلى المكان الذي تقصده ، ثم عاد إلى منزله .

والتقته كريستين في الــرواق فرحة وعيناها تشعان . ثم صرخت : « لقد بيعت ! لقد اشترى الدكتور لوري العيادة ! »

فلحق بها أندرو إلى غرفة الجلوس حيث كانت بقايا عشائها لا تزال على الطاولة .

وتابعت كريستين حديثها قائلة : « أليس هذا مُفْرحاً ؟ لقد بعناها بسرعة ؟ ولقد خطر لي أن نغادر المنزل لقضاء عطلة. »

ثم سكتت فجأة وقالت : « ما بك يا عزيزي؟ إنك تبدو غريباً ! »

فابتسم وجلس قائلاً : « لقد شعرت بتعب مفاجىء . ربما

لأنني لم أتناول العشاء . »

وهنا صرخت : « ماذا ! حتى هذه الساعة ؟ لقد ظننت أنك تناولت العشاء عند السيد ستيلمان . » ثم نظرت إلى الطاولة وقالت : « أما أنا فقد تناولت عشائي ! »

— « لا بأس ! »

— « كيف لا ! انتظرْ وسأحضر طعامك . اتفضل الحساء ، أم البيض ، أم ماذا ؟ »

— « بيضة واحدة ، رجاءً . وربما بعض الجبنة بعد ذلك . »

عندئذٍ أسرعت كريستين وأحضرت طعامه . وبينما كان يتناوله ، جلست بقربه وهي تتحدث بشغف عن المستقبل وعن مشاريع أندرو للعمل مع دني وهوب وقالت : « أتدري يا عزيزي ، انني أشعر وكأننا نبدأ حياة جديدة ، كتلك التي كنا نعيشها ! أوه ! أوه ، انني سعيدة جداً . »

ونظر إليها أندرو قائلاً : « هل أنت حقاً سعيدة يا كريس؟ »

فقبلته وقالت : « انها لأسعد لحظة في حياتي . »

ثم ساد صمت ، تناول خلاله أندرو قطعة من الخبز مدّ عليها بعض الزبد ، ثم رفع غطاء أحد الصحون ليتناول قطعة من الجبن ، ولكن الصحن كان فارغاً .

عندئذٍ صرخت كريستين خجلة : « أوه ، لقد اعتزمت شراء بعض الجبن من السيدة سميث اليوم ! »

وقفزت من كرسيها وهي تنظر إلى الساعة وقالت : « لا ! انني ربة بيت سيئة! سأسرع إلى السيدة سميث قبل أن تقفل مخزنها . »

— « أوه ، لا تزعجي نفسك يا كريس فأنا ... »

لكنها قاطعته بمرح : « أرجوك يا حبيبي ! أريد الذهاب لأنك تحب جبنة السيدة سميث ، وأنا أحبك . »

ثم خرجت من الغرفة قبل أن يتفوه بكلمة أخرى . وسمع وقع خطواتها السريعة في الرواق ، فابتسم ، وراح ينتظر عودتها.

ولكنها تأخرت كثيراً إلى درجة أنه بدأ يفقد شهيته للأكل .

وفجأة رنّ جرس الباب بعنف . فدُهش أندرو وذهب إلى الرواق . لكن الجرس رنّ ثانية بعنف أشد . وفتحَ البابَ الأمامي . وعلى الفور لمح الجموع خارج المنزل في الظلام .

وتقدم منه شرطي كان يعرفه جيداً وهو يتنفس بصعوبة قائلاً : « لقد وقع حادث يا دكتور ! فزوجتك كانت تركض.. أوه ، يا إلهي ! ركضت عبر الشارع ومرّ أوتوبيس ... »

فسرت في جسم أندرو قُشَعْريرة ، وقبل أن يتمكن من الكلام ، اكتظ الرواق بالناس . ثم دخل رجلان يحملان كريستين وفي يدها كيس من الجبن كانت قد اشترته من السيدة سميث . لقد كانت ميتــة .

الفصل السابع والثلاثون

انهار أندرو ، وبقي عدة أيام لا يعي ماذا يفعل . وأمضى دني معه عدة ساعات من كل يوم ، لكنه بدا وكأنه لم يشعر بوجوده . وذهب أندرو إلى جنازة كريستين مع دني ثم أمضى بقية النهار وهو يحتسي الشراب . وبينما كان يتمشى من غرفة إلى



« ستيلمان » يعاين ماري ٨

أخرى بخطى غير ثابتة أخذ يصرخ : « أنت الملوم في ما حدث ! هذا عقاب لك على ما اقترفتَ من جرائم ! لقد حاولتَ جمع المال وهذه جريمة . وان الله يعاقبك الآن عليها ! »

ثم صعد الدرج متردداً ، ودخل غرفة كريستين الساكنة ، الباردة ، والفارغة . كانت حقيبتها على الطاولة فتناولها أندرو بيدٍ مرتجفة وفتحها . ووجد صورة باهتة لها وبعض الملاحظات القصيرة التي كان قد أرسلها مرضاه في أبيرالو مع هدايا الميلاد تعبيراً عن امتنانهم له . لقد احتفظت بها كريستين طوال تلك السنين ! فجثا قرب سريرها وبكى .

ولم يحاول دني أن يمنعه من الشراب . وبما أن الدكتور لوري كان قد باشر الحضور إلى العيادة، ولم يعد من حاجة إلى أندرو فقد رأى دني أنه من الحكمة عدم التدخل في الوقت الحاضر . ولكنه ، بعد اسبوع أخذ اندرو الى قرية منعزلة تقع على ضفة النهر ، وعند وصولهما الى النزل الصغير المريح قال دني : « لقد اعتدت المجيء إلى هذا المكان لصيد الاسماك، وأظنه مناسباً لنا.»

وفي الصباح ، خرج أندرو برفقة دني للنزهة . وكان يوماً جميلاً . غير أن أندرو المتعب بعد قضاء ليلة أرقة سرعان ما أعرب عن رغبته في العودة . ولكن دني كان حازماً وألزم أندرو بالسير مسافة ثمانية أميال . وما لبث أن زاد المسافة إلى عشرة أميال ثم الى عشرين ميلاً يومياً .

واعتادا السير بصمت . ولم يلحظ أندرو في بادىء الأمر جمال الريف ولكنه بدأ مع الوقت يستمتع بمنظر الغابات والأنهار

والجبال . وأفادته الرياضة والهواء العليل فشعر بأنه أحسن حالا ، وأخذ يأكل وينام جيداً ، حتى إنه عاد يتحدث ثانية . واكتفى في البدء بملاحظات عرضية ؛ ثم إنه سأل دني يوماً عن أخباره .

وكان دني بانتظار تلك اللحظة فأجابه : « لقد أصبحت وهوب حُرّين بعد أن استقلنا من منصبينا . »

فأشرق وجه أندرو وقال : « استقلتما ؟ اذاً هذا يعني اننا... »

فابتسم دني .

— « سأستعيد قدرتي على العمل عما قريب . »

وفي ذلك المساء درسا احدى الخرائط ، ووضعا لائحة بالمدن التي يمكنهم فيها تأسيسُ عيادتهما الجديدة . وبعد بضعة أيام ، دُهش أندرو لمجيء هوب إلى النزل لينضم إلى المباحثات . وألقى هوب نكاته المعهودة التي أضحكت أندرو .

قال دني : « نحن بالطبع أغبياء ! إذ ليس لدينا الكثير من المال . وأحسب أننا سنتشاجر ، ولكن بطريقة ما ... »

فقال هوب وهو يتمطّى : « بل سيقتل بعضنا بعضاً . »

وفي اليوم التالي رحل هوب . وبعد تناول الفطور ، خرج أندرو بمفرده في نزهة ، فقد كان جميلاً أن يستعيد قواه ! كان يتطلّع بشوق إلى العمل مع هوب ودني . أجل ، لقد رغب في العودة إلى العمل !

وعند عودته في الحادية عشرة وجد أندرو رسالتين موجّهتين إليه ، فجلس بقرب دني الذي كان يقرأ الصحيفة ، وفتحهما . كانت الأولى من ماري بولاند تعزّيه بوفاة كريستين وتخبره

أنها أصبحت في صحة جيدة، وتشكره على كل ما بذله من أجلها .

فابتسم أندرو وهو يضع الرسالة جانباً ، ثم بدأ بقراءة الثانية . وعلى الفور اكفهرّ وجهه وشحُبَ . وجلس برهةً صامتاً ينظر إلى الرسالة ، ثم قال بصوت هادىء : « إقرأ هذه هذه يا دني ! »

الفصل الثامن والثلاثون

كانت الممرضة شارب قد ذهبت مباشرة – قبل ثمانية أيام وفور عودتها من مستشفى ستيلمان – إلى صديقتها الممرضـــة « ترَنْت » التي كانت تعمل في خدمة الدكتور هامسون إذْ كانتا متفقتَيْن على الذهاب إلى المسرح ذاك المساء . وعندما وصلت اعتذرت من صديقتها قائلة : « انني آسفة لتأخري ، لأن الدكتور مانسون قد ... »

وفي تلك اللحظة كان الدكتور هامسون ينزل إلى الطابق السفلي فحياها بمرح قائلاً : « مرحباً يا آنسة شارب ! أراكِ متعبة ! ثم لماذا بقيتما إلى هذا الوقت المتأخر ؟ لقد ظننت أنكما ذاهبتان إلى المسرح . »

فأجابته الممرضة شارب : « أجل يا دكتور ، لكن ... لقد أخرني الدكتور مانسون ... » وبعد تردد قررت أن تروي له كل ما جرى فقالت : « لقد أخرج الدكتور مانسون فتاة من مستشفى فيكتوريا وأوصلها إلى ذلك المكان في تشيلترين ... ذلك المستشفى الذي يُشرف عليه رجل أميركي غير مؤهل

لممارسة الطب » . وسردت عليه القصة كلها .

وبعد صمت ، قال فريدي : « انني آسف لما جرى ؛ والآن يجدر بكما أن تسرعا وإلاّ وصلتما إلى المسرح متأخرتين . »

قاد فريدي سيارته مباشرة إلى النادي ليتناول الطعام مع ديدمان وايفوري وكان قد استعاد صداقتهما بعد شجاره مع أندرو . وأثناء الطعام قال فريدي : « يبدو أن مانسون قد بدأ يخوض بعض المجازفات منذ أن تركنا ! فقد سمعت أنه يبعثُ بالمرضى إلى ذلك الرجل ، ستيلمان ! »

فكاد ايفوري يصرخ : « ماذا ؟ »

– « أجل ! كما علمت أنه ساعد ستيلمان في اجراء احدى العمليات ! لقد أخبرتني ممرضته بذلك . »

فنظر ايفوري إلى صحنه وأكمل عشاءه . ولم يكن قد غفر لمانسون ملاحظاته حول عملية فيدلير . لقد كان يعلم أنه جراح فاشل ، لكن أحداً لم يجرؤ على قول ذلك ! ولذا كره مانسون للبوح بتلك الحقيقة المؤلمة .

وبعد بضع لحظات رفع رأسه قائلاً : « يجب أن نفعل شيئاً حيال هذا ! يجب أن نخبر غادسبي . اذ أن غادسبي كان قد كلمني ، ذلك المساء ، عن مقالٍ نُشر في جريدة ما ، وهو مقال كلّه ثناء على جهود ستيلمان . ولقد كان غادسبي منزعجاً جداً من هذا المقال ... »

فشعر هامسون بالارتباك، اذ أنه لم يكن راغباً في التسبب

بالمشاكل لأندرو . فلقد شعر بطريقة غريبة بميل نحو أندرو . وقال : « ولكن لا تذكر اسمي للدكتور غادسي ! »

فقال ايفوري : « لا تكن غبياً يا فريدي ! يجب ألاّ نسمح لمانسون بالتصرف على هذا النحو ! »

وبعد العشاء ، ذهب للاجتماع بالدكتور غادسي الذي أصغى للقصة باهتمام ثم قال : « حسناً ! انني أعرف مانسون ، فقد عمل لدى هيئة الفحم والمناجم . أنا لم أحبه قطّ ، فهو سيء الاطباع ! تقول إنه أخرج مريضة من مستشفى فيكتوريا وأدخلها إلى محل ستيلمان ؟ »

— « كما ساعد في اجراء العملية ! »

فقال غادسي : « اذن ، يجب أن نرفع القضية إلى المجلس الطبي العام . وسأتولى ذلك بنفسي ، اذ أنني أعتبر هذا واجباً عليّ . فهذا الرجل ستيلمان يشكل خطراً على المهنة ! واذا كان مانسون يعمل معه فيجب أن يُمنعَ من ممارسة المهنة ويُشْطبَ اسمه من جدول الأطباء . »

وبينما كان أندرو في ويلز ، قُدِّمَ التقرير بحقّه ، دون ان يعلم ، إلى المجلس الطبي العام ، الذي قرر — بعد أن استمع إلى افادة كل من الدكتور ثوروغود ، والممرضة شارب ، وشخص أو اثنين آخرين — فتحَ تحقيق لدرس الشكاوى المقدمة بحقّ أندرو . وتلك الرسالة التي كان أندرو قد تسلمها هي التي أشْعَرَتْهُ بقرار المجلس الطبي العام .

الفصل التاسع والثلاثون

قبل بدء التحقيق باسبوع ذهبَ أندرو إلى لندن لتحضير دفاعه . وكان وحيداً فقد أبلغ دني وهوب انه يفضل ذلك . وشعر أندرو بالتعاسة اذ أنه لم يصدق أنه هو ، أندرو مانسون ، يقف هذا الموقف الحرج الذي يهابه كل طبيب . ولماذا يريد المجلس شطب اسمه ؟ فهو لم يفعلْ شيئاً معيباً ! بل على العكس ، لقد فعل شيئاً يستحق الثناء ، لقد شَفَى ماري بولاند !

ووافق محامٍ ، يدعى هوبر ، كان دني قد نصح أندرو باللجوء إليه ، على تولي مهمة الدفاع عنه في التحقيق ، لكن ، أندرو وجد هوبر رجلاً غبياً وضعيفاً وأوشك أن يتشاجر معه منذ لقائهما الأول . اذ أن أندرو رغب بالاتصال بالسيد روبرت أبي ، صديقهِ الوحيد ذي النفوذ في لندن ، ليطلبَ مساعدته ولكن هوبر اعترض على ذلك باعتبار أن « ابي » كان عضواً في المجلس الطبي العام . كذلك رفض أن يسمح لأندرو بدعوة ستيلمان كشاهد لأنه خشي أن يثير حضورُ ستيلمان انزعاجَ أعضاء المجلس .

وصرخ أندرو : « وأيُّ بأسٍ في ذلك ؟ فأنا لم أقترف خطأً ! ولست خجلاً مما فعلْتُ ! أريد أن يعرفَ المجلسُ الحقيقةَ . أريد أن أُثبتَ لهم انني أنقذتُ حياةَ الفتاةِ بارسالها إلى ستيلمان ، وأن تصرّفي كان صحيحاً وحكيماً ! »

وهنا صرخ هوبر : « انني أحذركَ من أن تتكلمَ هكذا أثناء التحقيق ! فاذا ما خاطبتَ المجلس بهذه الطريقة ، فانني متأكدٌ من أنهم سيعمدون إلى شطبِ اسمك من الجدول ! انني أنصحُكَ باختصار الكلامِ والاكتفاء بالاجابة بتواضـــع . »

وفي الليلة التي سبقت التحقيق ، وبينما كان أندرو يتنزه سيراً على الاقدام ، دخل احدى الكنائس عَبْرَ بابها المفتوح . وكانت مظلمةً من الداخل فجلس في المقعد الخلفي ، حيث تذكَّر كيف كانت كريستين تلجأ إلى قراءة الكتاب المقدس عندما تكون حزينة ، أما هو فقلّما ذهب إلى الكنيسة ، واذا به الآن هناك كمن يرتاح من عناء رحلة . وأخذ يصلي بصمت : « يا إلهي لا تَدَعْهُمْ يَشْطُبون اسمي ! لا تَدَعْهم يفعلون ! »

استيقظ أندرو في صباح اليوم التالي والقلق والترقّب ينهشانه ، فلم يتناول فَطوره . وكان مقرّراً أن تبدأ الجلسة في الحاديةَ عَشْرةَ ، بينما طلب منه هوبر أن يَحْضُرَ باكراً ، ولكنه وصل إلى المجلس الطبي العام في تمام الحاديةَ عشرة .

وأسرَعَ إلى الغرفة التي قُرِّر إجراءُ التحقيق فيها . وكان أعضاء المجلس جالسين إلى طاولة كبيرة . بينما جلس في الطرف الأقصى من الغرفة المحامون والشهود أصحاب العلاقة . وكان هنالك أيضاً ، ماري بولاند ووالدها ، والممرضة شارب ، والدكتور ثوروغود وغيرهم من الوجوه التي تعرَّف إليهــا أندرو . ووقف أندرو برهةً وهو ينظر إلى صف الكراسي الطويل ، ثم جلس إلى جانب هوبر .

وعلى الأثر انعَقدت الجلسة ، فوقف السيد بون ، محامي الادّعاء وتلا التهم الموجهة إلى أندرو ، ثم قال : « حضرة الرئيس ، أيها السادة . ان قضيتنا قضية طبيب يتعامل مع شخصٍ غير مؤهل . ووقائع القضية هي التالية : فقد أُدخِلَتِ المريضةُ ماري بولاند إلى مستشفى فيكتوريا للأمراض الصدرية في الثامن عشرَ من شهر تموز . وبقيت هناك برعاية الدكتور ثوروغود حتى الرابع عشرَ من شهر أيلولَ حين أبدت رغبةً في العودة إلى منزلها . ولكن ، بدلاً من أن تذهب إلى منزلها أدخلهــا الدكتور مانسون إلى مركز صحيّ يُشرف عليه شخصٌ يُدعى ستيلمان . وهو غير حائزٍ على أية مؤهلات طبية . هذا بالاضافة إلى كونه أجنبياً ... ! وتولى السيد ستيلمان فحصَ المريضة فورَ وصولها وقرّر اجراءَ عملية فورية لاحدى رئتيها ، ووافق الدكتور مانسون على مساعدته . وأجريا العملية معاً . وانني أكرر القول ، أيها السادة ، لقد عملا معاً ! »

ثم نظر السيد بون إلى أعضاء المجلس ليتأكد من أنهم أدركوا قصده ، وبعد ذلك ، نادى الدكتور ثوروغود .

وسأله : « دكتور ثوروغود ، هل صحيح أن الدكتور مانسون حضر إلى مستشفى فيكتوريا وطلب إليك تغيير طريقة معالجتك للمريضة ماري بولاند ؟ »

— « أجــل . »

— « وماذا قلت له ؟ »

— « رفضت طلبه . »

— « رفضتَ لصالح مريضتك ؟ »

— « أجـــل . »

— « وهل كان سلوك الدكتور مانسون غريباً حين رفضت ؟ »

فتردّد ثوروغود ثم قال : « حسناً ، ... لم يبدُ على ما يرام ذاك الصباح . لقد أخذ يُجادلني . »

— « شكراً لك يا دكتور ثوروغود . هل لديك ما يحملك على الاعتقاد بأن المريضة لم تكن راضية ؟ »

— « أوه ، كلا ! لقد بدت سعيدة وراضية . »

— « شكراً يا دكتور ثوروغود ، فهذا كل شيء . »

بعد ذلك استجوب بون ممرضة من مستشفى فيكتوريا ، ثم نادى الممرضة شارب .

— « والآن يا آنسة شارب ، أيمكنك أن تخبرينا عن تصرُّفات الدكتور مانسون بعد ظهر يوم الاربعاء الواقع في الرابع عشر من أيلول ؟ »

— « أجل ، لقد كنت هناك ! »

— « انني استنتج من صوتك ، أيتها الممرضة شارب ، أنك لم ترغبي في أن تكوني هناك . »

— « عندما أدركت إلى أين كنا ذاهبين ، وأن هذا الرجل ، ستيلمان ، لم يكن طبيباً كنتُ ... »

فقال بون : « مشمئزة ؟ »

— « أجل كنت مشمئزة ! »

عندئذ قال بون والفرحُ بادٍ عليه : « بالضبط . والآن سؤال أخيرٌ يا آنسة شارب . هل ساعد الدكتور مانسون بالفعل السيد ستيلمان في اجراء العملية ؟ »

فأجابته بصوت مفعم بالكراهية : « لقد ساعده . »

وهنا انحنى « أبي » إلى الأمام وسألها : « هل صحيح ، يا آنسة شارب ، أن الدكتور مانسون كان قد أعطاك قبيل ذلك مُهلةً لترك العمل ؟ »

فامتقع لونها وقالت : « أجل ، أجل ، أظن ذلك . »

وعندما جلست أدرك أندرو أن « أبي » كان على الأقل ما يزال صديقه .

وانزعج بون من هذه المقاطعة ، واستدار نحو أعضاء المجلس وقال : « حضرةَ الرئيس ، أيها السادة ، ان باستطاعتي أن أطلبَ المزيدَ من الشهود . لكن هذا ليس ضرورياً ، اذ أظن أنني أثْبَتُّ صحة التهمة الموجهة إلى الدكتور مانسون . »

وجلس السيد بون وهو شديد الرضا عن نفسه . ثم ساد صمت قصير فيما كان أندرو ينظر إلى الارض ويفكر بمرارة كيف أنهم يعاملونه كمجرم . ثم شرع محاميه بمخاطبة المجلس .

لقد بدا هوبر مرتبكاً ، ممتقع الوجه وأخذ في السعال ثم قال : « انني أعترف بصحة هذه التهمة ، لكن صديقي السيد بون لم يكن عادلاً مع الدكتور مانسون . اذ أنه أغفَلَ الاشارة إلى أن الآنسة بولاند كانت مريضة الدكتور مانسون الخاصة قبل أن يُعنى بها الدكتور ثوروغود . وأنه كان للدكتور مانسون اهتمام خاص بحالتها . أنا أُقرّ أن اخراج الدكتور مانسون للآنسة بولاند من مستشفى فيكتوريا كان تصرّفاً خاطئاً تماماً ، لكنه لم يكنْ مخزياً ، وليس من ريب في أن الدكتور مانسون لم يكن راغباً في مخالفة القوانين الطبية . كل ما في الأمر أنه لم يوافق على أسلوب الدكتور

ثوروغود في معالجة الآنسة بولاند ... »

ثم إن هوبر نادى ماري بولاند .

وسألها : « آنسة بولاند ، هل واجهتِ أيَّ سبب يدعو للشكوى حين كنت في مستشفى ستيلمان ؟ »

— « أوه ، كلا ! طبعاً لا ! »

— « ألم تَسُؤ حالتك ؟ »

— « لا ، لا ، بل تحسنت كثيراً ! »

فقال لها هوبر بسرعة : « شكراً لك ، هذا كل شيء . سأنادي الآن الدكتور مانسون . »

ووقف أندرو وهو مدرك أن كلَّ العيونِ شاخصةٌ إليه ...

وخاطبه هوبر قائلاً : « هل قبضت يا دكتور مانسون أي مبلغ من السيد ستيلمان ؟ »

— « لم أقبض بنساً ! »

— « وهل قصدت ايذاء الدكتور ثوروغود بتصرفك هذا؟ »

— « طبعاً ، لا ! لقد كنا صديقين حميمين . وكل ما في الامر انني لم أشاطرْهُ رأيَهُ في هذه القضية . »

— « بالطبع . والآن يمكنك ابلاغ المجلس بصدقٍ انك لم تقصدْ مخالفة القوانين الطبية . »

— « هذه هي الحقيقة . »

ثم إنّ هوبر ، الذي كان قد تردد في طلبه كشاهد خوفاً من أن يُكثر الكلام ، طلب إليه الانصراف ...

وهنا قفز بون وأخذ يسأل أندرو : « دكتور مانسون ،

لقد قلتَ أنك لم تقصدْ مخالفةَ القوانينِ الطبية . لكنك كنتَ تَعلم ان السيد ستيلمان لم يكن مؤهلاً . أليس كذلك ؟ »

فأجابه أندرو ببرود : « أجل كنت أعرفُ أنه ليس طبيباً . »

— « آه ، ولم يمنعك ذلك عن ارسال المريضة إليه ! »

فأجابه أندرو بانزعاج بعد أن أخذ نَفَساً عميقاً : « لا ، لم يمنَعْني . لقد أصغيتُ إليك وأنتَ تطرحُ الأسئلة يا سيد بون ، والآن ، سأطرحُ عليك سؤالاً . هل سمعتَ بلويس باستور ؟ » .

فدُهشَ بون للسؤال وقال : « أجل ، طبعاً ! »

— « طبعاً ، الكل سمعَ عنه ! حسناً ، يا سيد بون ، هل تعرفُ أن لويس باستور ، أكبرَ اسمٍ في عالم الطب ، لم يكن طبيباً ؟ وكذلك لم يكن العديد من ألمع الاسماء في حقل الطب .. »

عندئذ ساد صمت ! واشرأبَّ أعضاء المجلس في مقاعدهم فيما نظر « أبي » إلى أندرو بطريقة ودية ، وارتبك هوبر وغضب بون.

ثم قال بون : « أجل ، أجل ، لكن هؤلاء كانوا شواذّ . وبالطبع ، أنت لا تقارن ستيلمان بهم ؟ »

— « ولمَ لا . فهؤلاء الرجال خاضوا صراعاً طويلاً قبل أن يصبحوا مشاهير . ولقد خدم ستيلمان الطبَّ أكثر مما فعل الآلاف من حملة الشهادات . أكثر بكثير من هؤلاء الأطباء الذين يقودون سيارات فخمة ويتقاضَوْن أجوراً مرتفعة لقاء خدماتهم ! ان ستيلماناً رجلٌ عظيم . لقد بذل من الجهود في معالجة السل أكثر مما بذله أيُّ طبيبٍ في هذا البلد ! »

وأحدثت كلماته ضجةً ، فنظرت إليه ماري بولاند باعجاب فيما أخذ هوبر يَجْمع أوراقه ببطء واكتئاب واثقاً من أن أندرو قد خسر القضية .

وهنا تكلم الرئيس : « هل تقصد فعلاً ما قلته يامانسون؟»

فأجابه أندرو بحزم : « أجل ، انني أقصده . » فلقد كان عازماً على التعبير عن آرائه ، واذا كانوا ينْوُوْن شَطْبَ اسمه فانه سيعطيهم مبرِّراً لذلك !

ثم أردف قائلاً : « هناك في مهنتنا أخطاء كثيرة آن لنا أن نصحّحها . فالأطباء لا يتدربون كما يجب ، ويكتفون بدراسة أسس الطب في الكليات الطبية . وعندما تخرَّجتُ كنتُ أشكل خطراً على المجتمع ، اذ انني كنت أعرف أسماء عدد قليل من الأمراض والأدوية التي كان من المفروض أن تعالج المرضى . لقد تعلمت تقريباً كل ما أعرفه الآن عن الطب بعد أن تخرجت من مدرسة الطب . ولكن ما هو عدد الأطباء الذين ينكبّون على الدراسة أثناء الممارسة ؟ قليل جداً ! اذ أن عملهم يحول دون ذلك . إن جهازنا كلّه عفِن ! يجب على الأطباء أن يتعاونوا ويتقاسموا معلوماتهم . يجب أن يتعمقوا في دراسة سبب المرض ومعالجته بدلاً من الاكتفاء باعطاء المرضى زجاجات من الأدوية . وماذا يحصل الآن ؟ يجمع الكثير من الأطباء ثروات من مرضاهم ، باعطائهم أدوية وعلاجات باهظة التكاليف ، عقيمة الفائدة ! وهذا ليس عادلاً ! كما أنه ليس شريفاً ! ولقد ارتكبتُ أنا عدة أخطاء ندمتُ عليها . لكنني لم أخطىء بخصوص

ستيلمان ولست نادماً على ما فعلت . »

قال هذا ثم جلس .

وساد صمت قصير . ثم أمر الرئيس باخلاء القاعة .

خرج أندرو مع الآخرين ، وهو يشعر بالغضب . وتمنى لو أنه ضبط أعصابه ولم يتكلم بتلك الطريقة . فقد كان تواقاً للعمل مع دني وهوب . أما الآن فقد يشطبون اسمه ! .

وحرره ضجيج حركة الناس من أفكاره ، فعاد وانضم إليهم عائداً إلى قاعة المجلس ، وجلس بصمت تامٍ وقلبه يخفق بسرعة .

وتكلم الرئيس : « أندرو مانسون ، لقد درس المجلسُ باهتمام التهمَ المَسُوقةَ ضدّك ، وقرّر السماحَ لك بالاستمرار في مزاولة الطب . »

وللوهلة الأولى ، عجز أندرو عن فهم الكلمات فيما ازدادت سرعة خفقان قلبه من شدة الفرح والارتياح . انهم لم يشطبوا اسمه. لقد كان حراً ! ثم رفع رأسه ونظر إلى أعضاء المجلس فلم يُميِّز منهم غيرَ روبرت ابي .

وفي تلك اللحظة أدرك أن « أبي » هو الذي أنقذه . فخاطب الرئيس وهو يقصد « أبي » بكلامه ، وقال : « شكراً لك يا سيدي. »

وعلى الفور ، اقترب أصدقاؤه ، كون ، وماري ، والسيد هوبر المُنذهل وأناس لم يسبق له أن شاهدهم وأخذوا يصافحونه .

ثم قالت ماري والدموع تملأ عينيها : « لو أنهم شطبوا اسمك ، بعد كل الذي فعلته من أجلي ، لكنت ... قتلت ذلك الرئيس العجوز ! »

فابتسم أندرو .

ثم ذهب الثلاثة ، أندرو ، و « كون » وماري إلى فندق أندرو . وهناك كان « دني » بانتظارهم . فاتجه نحوهم وهو يبتسم. لقد أخبره هوبر على الهاتف بقرار المجلس لكنه لم يذكر لهم ذلك ، واكتفى بالقول : « انني جائع . هيا نتناول الغداء . »

لم يذكر « دني » شيئاً عن التحقيق أثناء تناول الغداء . وبعد أن أنهوا الطعام أخبر أندرو قائلاً : « ان بامكاننا شراء ذلك البيت الذي نحتاجه كعيادة ، فهو بخس الثمن ! ولقد ذهب هوب ليراه ، وسينطلق قطارنا في الرابعة . أما الآن فسأذهب لشراء بعض الحاجيات وسألقاك في المحطة . »

فنظر أندرو إلى « دني » وهو يفكر في صداقتهما وفي كل ما هو مَدينٌ له به مُنذ لقائهما الأول في عيادة در اينفي الصغيرة . ثم قال فجأة : « ماذا كان سيحصل لو أنهم شطبوا اسمي ؟ »

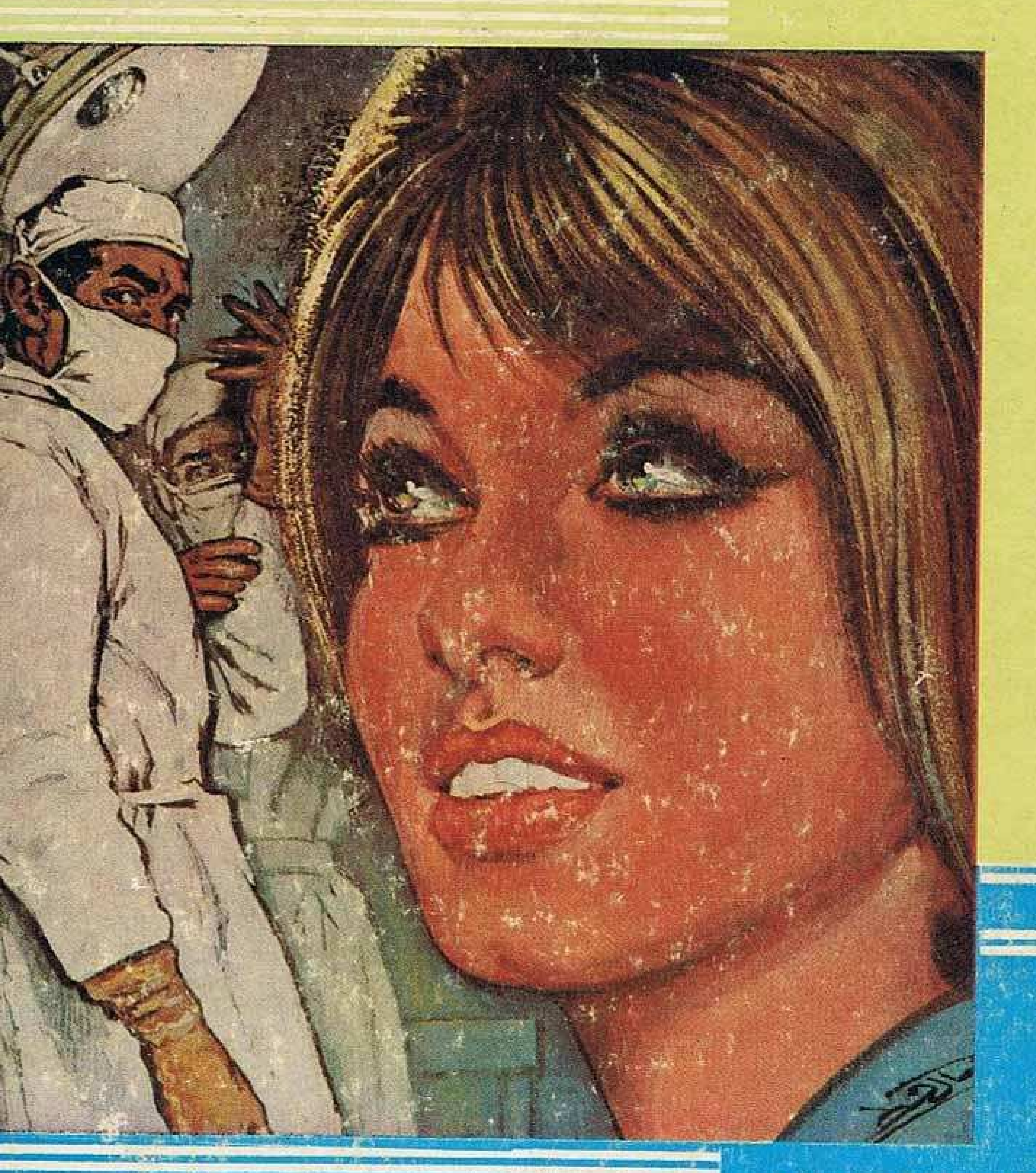
فهزَّ فيليب رأسه قائلاً : « ولكنهم لم يشطبوا اسمك ! » وسوف أتأكد من أنهم لن يفعلوا ذلك أبداً . »

وعندما انصرف « كون » وماري ، ذهب أندرو إلى باحة الكنيسة حيث دُفنت كريستين . ووقف طويلاً بجانب قبرها وهو يفكر بأشياء كثيرة . لقد كان الأصيل مشرقاً منعشاً كذلك الذي طالما أحبته كريستين . وأخيراً ، عندما استدار مسرعاً خشيةَ أن يفوته القطار زقزق عصفورٌ جذلانُ من على شجرَة :

٦٩٩/ ٤/ ٧٤

المكتبة العالمية
للفتيان والفتيات

القلعة...



دار العلم للملايين
بيروت